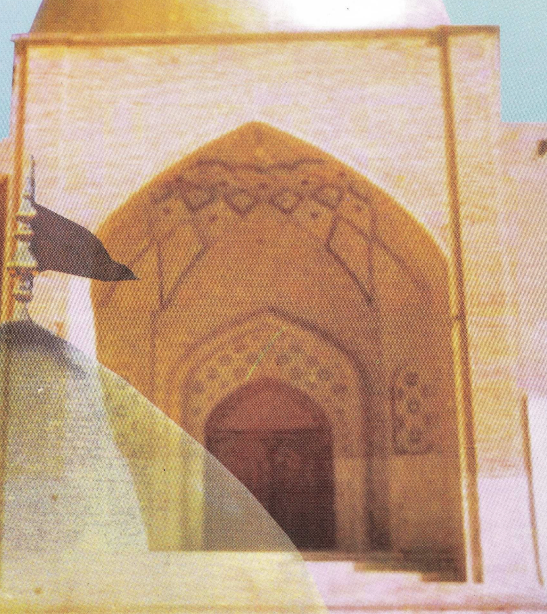
الكوفة

بين الولاء والغدر

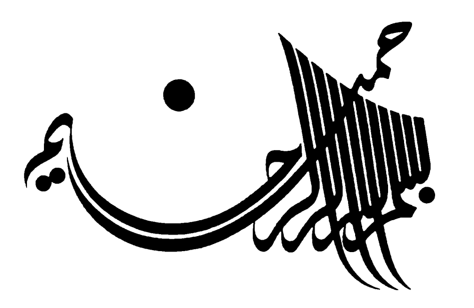
آمنة محمد



مؤسسة العارف للمطبوعات



الكوفة
بين
الولاء والغدر



الكوفة

بين الولاء والغدر

بقلم: آمنة محمد

مؤسسة العارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

اسم الكتاب : الكوفة بين الولاء والغدر
المــؤلــف : آمنة محمد
القطـــع : ١٥ × ٢٢,٥ سم
الصفحات :١٩٢ صفحة
طبــع في : مطابع دلتا
التنضيــد : حسن سويدان - مؤسسة المنتدى
الغــلاف : محمد شراد - مؤسسة طيبة
التجليــد : مؤسسة اقرأ للتجليد

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

إصدار



ص.ب: 106/24
1017 2010
برج البراجنة /بعبدا
Tel :00961 3 210508
Fax:00961 1 543359
Email:arefli@hotmail.com

مقدمة

بقلم المؤرخ الكبير

الأستاذ السيد حسن الأمين

الكوفة بكل ما لها من أمجاد في تاريخ العروبة والاسلام، وبكلما توالى عليها من أحداث وما حفلت به من معاهد وقواعد، وما طلع منها من شهداء وعلماء وشعراء ومفكرين. الكوفة هذه كانت جديرة بدراسات واسعة تفيها حقها وتبرزها على حقيقتها وتضيء ما أظلم من تاريخها. وهذا ما لم يتقدم له أحد ممن كان يجب أن يتقدموا.

لذلك اغتبطت كل الاغتباط حين عرفت من السيدة آمنة أن لها دراسة عن الكوفة، طلبت إليَّ أن أكتب مقدمة لها، فأسرعت لتلبية طلبها، فكتبت هذه الكلمات التي لم تكن نتيجة استقصاء لما في الكتاب، بل كانت تقديراً لفكرة هذا العمل الفريد.

لقد ظُلمت الكوفة فنُسب إليها ما نُسب من الغدر والمكر، ونسي هؤلاء الناسبون أن ما حدث فيها لم يكن نتيجة غدر ومكر، بل

نتيجة ظروف كانت أقوى من أن تدفع. وأهم ما يُنسب إليها موقفها من الحسين عليه السلام، وينسى هؤلاء الناسبون أن الأقدار جعلت عبيد الله بن زياد يسبق في الوصول اليها، الحسين عليه السلام فيقتل ـ في الحال ـ من يقتل ويسجن من يسجن، وأن فريقاً من رجالها صدف أن كانوا خارجها حين اشتداد الأمر، فتجمع من كل ذلك ومن عوامل أخرى، أن تجهض الثورة ويفشل الأمر. . .

وليست هذه الثورة أول ثورة تجهضها الأقدار، ولا هذا الأمر أول أمر تفشله الظروف. . .

وينسى متهمو الكوفة أن فريقاً من رجالها كان يمكنهم ـ بعد الفشل ـ القرار في بيوتهم والبعد عن المكروه، ولكنهم أبوا ذلك وصمموا على أن يكون مصيرهم مصير الحسين فخرجوا من الأمان والسلامة إلى الاستشهاد بين يدي الحسين. هذا ما فعلته عصبة كان على رأسها حبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة.

وينسون أن قائداً من القوَّاد كان يأمر فيُطاع، ويتصدَّر من موقعه مجالس الناس، رفض القيادة والإمرة والصدارة وآثر عليها الشهادة، وهذا ما فعله الكوفي العريق: الحر الرياحي.

وينسون أن الكوفة قبل ذلك قد أنجبت حجر بن عدي الكندي وأصحابه الذين كانوا أعلى منارة في التاريخ في الثبات على المبدأ أو

الصمود في العقيدة، وأنهم آثروا الموت على أن يتزحزحوا قيد أنملة عن مبدئهم وعقيدتهم.

إنني أحيي السيدة آمنة على وفائها للكوفة، الكوفة التي وفت لدعوة الحق ورسالة الصدق، على عكس ما يبهتها الباهتون، ويصمها المفترون.

حسن الأمين

أهل الكوفة والناقدون

مقدمة:

على مرّ العصور وفي كل تجربة تُمنى بالاحباط يحاول الانسان إجراء دراسة شمولية يتناول خلالها تحليل الأسباب المادية والمعنوية المؤدية إلى الفشل في الوصول للهدف، ومن بين الأسباب القوية التي نعلّق عليها جميع الاحباطات هي البنية الاجتماعية والتركيبة النفسية لمجتمع معين وما تحويه من عوامل تجعله غيرمؤهل لبلوغ الغاية، بل أنَّه يخذل قادته في منتصف الطريق، وقد كان مجتمع الكوفة من المجتمعات التي اختلف فيها المؤرّخون قديماً وحديثاً؛ فمن متهمٍ لهم بالغدر والنكوص والتخاذل وآخر يتهمهم بالانحراف والجبن، وذكروا لذلك إستدلالات وبراهين واعتبروا هذا المجتمع غير كفوء لاسناد المصلحين من الثوار ولطالما ذكروا تحذيرات الأولين لكثير من الخارجين بغدر أهل الكوفة واستدلوا بأحداث تأريخية مأساوية تبدأ بإسناد أهل الكوفة لكل ثائرٍ على الباطل ودعمه وتنتهي بتركه وحيداً على الساحة يلقى نهايته المفجعة؛ فها هي الكوفة مع أمير المؤمنين عليه السلام في تقاعسها عن الخروج لحرب معاوية، وها هي مع ولده الحسن عليه السلام حيث نهبوا رحله وطعنوه في فخذهِ،

ثم مع الحسين عليه السلام ورسوله مسلم بن عقيل(رض) وما جرى من واقعة الطف الرهيبة التي قامت فصولها على خذلان أهل الكوفة لمسلم بن عقيل، ثم الحسين عليه السلام إلى غيرها من الثورات المتلاحقة؛ كثورة المختار، وزيد بن علي وغيرها حتى باتت هذه الفكرة متأصلة في عقول الكثيرين سيما في عصورنا الحاضرة وما تنطوي عليه من أحداث تجعل الانسان يقف ليتساءل:

هل هناك سمة متأصلة في نفوس هؤلاء يرثها الأبناء عن الآباء بالاستعداد الوراثي والبيئة الخصبة التي تساعد على تجذير هكذا خصال لا تقبل التبدل والاصلاح؟

وهل يعني هذا أن هؤلاء أمةٌ لا خير فيها لأن الزمن قد كشف حقيقتها ومحص معدنها؟

وهل يعتبر هذا التقييم حقيقة يجدر بكل مُصلح أو ثائر أن يضعها في حساباته وهو يخطط للوصول إلى الهدف؟

الجانب الثاني في الموضوع هو أنَّ هناك من يقف مدافعاً عن هذه الحاضرة داعياً إلى التوقف لاجراء دراسة شمولية لأوضاع هذا المجتمع، وما عاناه من الويلات والضغوط لاستهدافه من قِبَل الأعداء الذين يرون فيه مجتمعاً متميزاً يحمل إحساساً مُرهفاً وميلاً للانسياق في تيار الحق، وهذا ما دعى أعداء الحق لأن يعاملونه بأسلوب يختلف عن تعاملهم مع الآخرين.

بين وجهتي النظر هاتين نجد أن من دواعي الانصاف والمسؤولية تسليط الضوء على الواقع الكوفي بكل جوانبه في مراحله التأريخية المتعاقبة ومحاولة دراسة التجارب التي كان مصيرها الإحباط وتحديداً أسباب ذلك وقد يكون من العسير على الشخص غير الضليع في التأريخ أن ينجح في هذا البحث نظراً لأن كثيراً من الأحداث التاريخية لم تمحّص بالصورة التي نستطيع القول أننا نصيب بها الحقيقة، ولكن قد تكون محاولة لتلمّس خيط من خيوط الحقيقه الذي نستطيع بضياء نورهِ أن نحدد تقييماً منصفاً لهذا المجتمع، ولدراسة البنية الاجتماعية والتركيبة النفسية لأهل الكوفة نجد لزاماً علينا تسليط الضوء على تأريخ نشأتها.

نشأة الكوفة:

تعتبر الكوفة من المدن الحديثة حيث تمَّ تمصيرها في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وذلك عندما فرغ قائد الخليفة سعد بن أبي وقاص من وقعة القادسية (سنة ١٧هـ) توجّه إلى المدائن وصالح أهل روميه، ثم افتتح المدائن وقد كتب له الخليفة أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروان، وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً؛ ليكون حاميه ومقراً لجيش المسلمين الذي اتسع بشكل ملحوظ إثر معركة القادسية التي شجعت الكثيرين على الالتحاق بقوى الفتوحات لِما أفاء الله على الجيش من الأموال والمكاسب حتى أن نصيب الجندي

من فيء المدائن بلغ إثني عشر ألفاً[1].

وقد خطّ سعد المسجد ثم بنى قصر الكوفة من بقية أبنية الأكاسرة في الحيرة. ومن المعلوم أن الامام علي عليه السلام رفض النزول بالقصر عند قدومه الكوفة وإتخاذها عاصمة الدولة الاسلامية[2].

إنّ تخطيط مدينة الكوفة كان عبارة عن مخيم واسع موزع توزيعاً عسكرياً يتألف من سبعة أفواج؛ كل فوج يضم قسماً من محلاتها المعروفة باسم قبائلها ولم تكن فيها شوارع بل كانت خليطاً من مجتمعات سبعة؛ كل مجموعة من عدة عشائر تنزل في جهة، وكانت خليطاً من مختلف الأجناس والديانات، وكان الدافع لاستيطان غير المسلمين فيها هو ثراء الجيش وتدفق الأموال، والتقسيمات السبعة هي:

١ ـ كنانة وحلفاؤها وجديلة (وقد كانت هذه الفئة التي تسند العامل في الكوفة من زمن سعد إلى العهد الأموي وكان لهم العدد الأوفر ثم أخذ يتضاءل).

٢ـ قضاعة وبجيلة وغسان وخثعم وكندة وحضرموت والازد.

---

(١) الطبري ٢/ ٤٦٦ (فقسم سعد الفيء بين الناس بعدما خمّسه فأصاب الفارس اثنا عشر الفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل).

(٢) معالم الانحراف/ محمد نعمة السماوي.

٣ ـ مذحج وحمير وهمدان (وقد لعبهذا القسم دوره في حوادث الكوفة وكانت له مواقف بارزة).

٤ ـ تميم وسائر الرباب وهوازن.

٥ ـ بنو أسد ومحارب والنمر وغطفان وتغلب وصبيعة (وأكثرية هؤلاء من ربيعة).

٦ ـ لملمة أظهرهم طيء.

٧ ـ أياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء[١]. أياد وأهل الهجر كانوا بقية قبائل كانت تقيم هناك في السابق أما بنو عبد القيس فقد هبطوا من البحرين تحت زعامة زهرة بن حويه. وقد كانت الحمر حلفاءزهرة وينزلون معهم وعدتهم (٤٠٠٠) جندي فارسي يُسمّون جند شاهنشاه فاستأمنوا يوم القادسية على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويُفرَض لهم من العطاء فأُعطوا الذي سألوه وكان لهم نقيب يقال له: ديلم ولما جاء عهد زياد فرّقهم في الشام البصرة والكوفة وكان لهذا القسم دور ثقافي في الكوفة والبصرة.

لو أردنا التعرّف على شيء يسير عن هذه القبائل نجد أنها؛ قبائل مختلفة من أماكن متفرقة من الجزيرة وبعضها من قبائل مضر وربيعة والآخر من قبائل اليمن كحمير وهمدان والازد، وتختلف هذه

---

(١) الطبري، ج٢، ص٤٨١، (دون العبارات داخل الأقواس).

القبائل بدرجة تمسّكها بالاسلام الذي يترتب عليه مواقفها ازاء القضايا المختلفة. والملاحظ أن أغلب هذه القبائل قد أسلمت بعد أن أسلمت قريش إثر فتح مكة، واستباب الأمر لرسول الله ﷺ في أغلب الجزيرة فدانت له أغلب القبائل، فمثلاً كان إسلام طيء بعد غزو سرية بعثها الرسول ﷺ إلى اليمن أُسرت على أثرها سفانه أخت عدي بن حاتم الذي هرب الى الشام، ثم أسلم بعد أن أشارت عليه أخته بأن يلحق برسول الله ﷺ لما رأت من فضله وحُسن أخلاقه، وحَسُنَ إسلام عُديّ وأسلمت معه طي وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة أي بعد فتح مكة (٨هـ). أما تميم فكان إسلامها في السنة التاسعة للهجرة بعد قدوم وفدها على الرسول ﷺ، وفي نفس السنة أسلمت حمير. وكان إسلام غسان في السنة العاشرة، فقد أسلم صُرد بن عبد الله وحَسُن إسلامه فبعثه الرسول ﷺ بجيش وأمره أن يجاهد من أشرك من قبائل اليمن بمن فيهم خثعم. بعث رسول الله ﷺ الامام علياً عليه السلام في سرية إلى اليمن يدعوهم إلى الاسلام فأسلمت همدان كلها في يوم واحد فكتب بذلك إلى الرسول ﷺ، فخرَّ ساجداً ثم جلس وقال ﷺ: السلام على همدان، السلامِ على همدان ثم تتابع أهل اليمن على الاسلام. وفي السنة العاشرة قدِم وفد عبد القيس وعلى رأس الوفد الجارود بن عمرو؛ أخو عبد القيس وكان نصرانياً وقد أسلم وحَسُنَ إسلامه.

أما كندة فقد قَدِمَ وفدها مسلماً في السنة العاشرة للهجرة إلى

رسول الله ﷺ وعلى رأسه الأشعث بن كنده وقد أتوا الرسول ﷺ مفاخرين بنسبهم لأمهم حيث يقال له: آكل المرار، وبعض جدَّات الرسول ﷺ تنتمي لهذا النسب، والملاحظ النزعة القبلية التي تحرص على مسألة النسب الرفيع حيث أن كنده كانوا ملوكاً[1].

جاء الاسلام موحّداً المجتمع ورافضاً الروح القبلية لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[2]. فالتقوى هو الأساس لتقييم المسلم وصلاحه وما يقدّمه من عطاء للمجتمع لا أن يكون الثراء والانتماء القبلي هما الدعامة التي تقوم عليها التقييمات للأشخاص، وقد عمل الرسول ﷺ في فترة حياته على تأكيد المفاهيم الاسلامية فشهد المجتمع في الجزيرة إنقلاباً في الأفكار وصعود أشخاص كانوا في الجاهلية مغمورين ومسحوقين كعمار بن ياسر وبلال الحبشي وعبد الله بن مسعود وبنفس الوقت أفول نجم كثير من الشخصيات التي كانت في الجاهلية متألقة كأبي سفيان وغيره، بل يمكن لنا القول أن التقييمات قد أصبحت ربما معكوسة، هذا التغيير من الشيء إلى ضده وخلال ثلاث وعشرون سنة يجعلنا نتساءل: تُرى هل استوعبت كل النفوس هذا التغيير وتشرَّبت بالمفاهيم الجديدة؟ وهل قُلِعت جذور الجاهلية من النفوس بصورة

---

(١) الطبري، ج٢.

(٢) سورة الحجرات، آية ١٣.

متكاملة بحيث لا تنمو لها أي بقية عند تغير الظروف؟

إن الأحداث التي جرت بعد وفاة الرسول ﷺ أثبتت أن النفوس لم تستوعب التغيير بصورة كاملة، هذا للمسلمين الذين عاصروا الرسول ﷺ لفترة طويلة نسبياً، فكيف بمجتمع الكوفة الذي يظهر مما سبق أن أغلبه قد أسلم بعد فتح مكة واستتباب الأمور لصالح الاسلام.

الكوفة في زمن الخليفة عمر:

كانت بداية تمصير الكوفة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب ولو أردنا دراسة مواقف المجتمع الكوفي ازاء الحوادث المختلفة نجد لِزاماً علينا إلقاء الضوء على الوضع العام للدولة الاسلامية في عهد الخليفة الثاني، فقد تميز عهدهُ بميزتان لم تكونا موجودتين فيما سبق، وهما:

١ـ التفضيل في العطاء:

أحدثَ الخليفة عمر بن الخطاب قانوناً جديداً للعطاء من بيت المال يقوم على المفاضلة فيُفضل السابقين على غيرهم والمهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين وتفضيل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضّل العرب على العجم والعبد على المولى[1]، وقد جاء في رواية الطبري:

---

(١) شرحالنهج، ج٨، ص١١.

[فرض عمر للمسلمين الفروض ودوَّن الدواوين وأعطى العطايا على السابقة وبدأ بعم رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب ففرض للعباس وبدأ به ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية الى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف... ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين... وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً... فكان فرض للعباس خمسة وعشرين ألفاً وأعطى نساء النبي ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف][1].

كان لهذا المبدأ آثار وإنعكاسات على المجتمع بصورة عامة وإيجاد جذور للطبقية في المجتمع بالاضافة إلى تعزيز الروح القبلية بتفضيل قريش على غيرها وتفضيل بعض القبائل على الأخرى وتفضيل العرب على الأعاجم، وقد أدرك الخليفة عمر في آخر أيامه الآثار الاجتماعية الخطيرة لهذا المبدأ لذا قال:

[بلغني أنكم تتخذون مجالسٍ لا يجلس إثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تُحوميت المجالس وأيم الله إنَّ هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم][2].

---

(١) الطبري، ج٤.

(٢) الطبري، ج٤، ص٢١٣.

لذا أعلن عمر عن نيته في التسوية في العطاء تلافياً للنتائج، فقد روى الطبري:

[قال عمر قبل موته: لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، ألفاً يجعلها الرجل في أهله وألفاً يُزوّدها معه وألفاً يتجهز بها وألفاً يترفق بها، فمات قبل أن يفعل][1].

وروى عن عمر أنه قال: [إني كنت تألفتُ الناس بما صنعته من تفضيل بعض على بعض وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس فلم أفضّل أحمر على أسود، ولا عربياً على أعجمي، وصنعت كما صنع رسول الله ﷺ وأبي بكر][2].

لا يخفى ما لهذا المبدأ من إثراء لفئة على حساب الأخرى وبث روح التحاسد والحقد وإثارة النزعات القبلية والعرقية في المجتمع المسلم بخلاف المنطق القرآني الذي يدعو إلى المساواة بين الناس في العطاء والتكريم على أساس التقوى كما جاء في الآية: ﴿**يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[3].

---

(١) الطبري، ج٣، ص٦١٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج، ج٢، ص١٣١.

(٣) سورة الحجرات، آية ١٣.

٢ـ الشورى:

جعل الخليفة عمر الخلافة بعده محصورة في ستة أشخاص من قريش هم:

١ ـ عثمان بن عفان.

٢ ـ علي بن أبي طالب.

٣ ـ الزبير بن العوام.

٤ ـ طلحة بن عبيد الله.

٥ ـ سعد بن أبي وقاص.

٦ ـ عبد الرحمن بن عوف.

أوجدت الشورى لدى قريش شعوراً بالتميُّز والتفرد وأصبحت الخلافة طموح لكثير من الأشخاص البارزين في قريش باعتبارها شأناً خاصاً بها وليس لأحدٍ من غيرها، لذا فقد طمح بالخلافة الكثير من الذين وجدوا أن مرشحي الشورى لا يفضلونهم في شيء[1]، وبنفس الوقت كان للشورى إنعكاساً سلبياً على الأنصار الذي وجدوا أنهم قد حُرِموا من كل الامتيازات مع أنهم كانوا هم حماة الاسلام في بداية الدعوة، بل ان نتيجة الشورى أضحت انتصار لبني أمية الذين كانوا إلى الأمس القريب ألدّ أعداء الاسلام، بل أن مبدأ الشورى والتفضيل

(١) ثورة الحسين/ محمد مهدي شمس الدين.

في العطاء أوجد طامحين بالحكم بدأوا بتجميع الأعوان والأموال ومن خلال المصاهرة مع القبائل على تكوين مراكز قوى كان لها دور في الأحداث اللاحقة.

أما السياسة الادارية للأمصار فيمكن لنا تلمّس آثارها من خلال معرفة الولاة الذين عيَّنهم الخليفة عمر على مدينة الكوفة منذ بداية تمصيرها، حيث يُلاحظ أن أسس العصبية القبلية قد وُضعت مع وضع أساس مدينة الكوفة، وذلك حين بُني مسجدها الذي جعل والي الخليفة سعد بن أبي وقاص لكل قبيلة مكاناً معيناً فيه، فأزال بذلك الحكمة في مساواة المسلمين في الصلاة بالوقوف بين يدي خالقهم، بغض النظر عن اللون والهوية والعرق، وبذلك كان المسجد أحد الأماكن التي تمثل العصبية القبلية أصدق تمثيل، ثم قسَّم سعد الكوفة إلى قسمين شرقي وغربي، وكان القسم الشرقي أفضل من الغربي، فكان ذلك سبباً لتنازع القيسية واليمنية لامتلاك الجزء الشرقي، وحُسم النزاع بالاقتراع فكان الجزء الشرقي من نصيب اليمن، وتجمعت القبائل على أساس التقسيم القبلي، وكان تنظيم المدينة بهذا الشكل لغرض التعبئة والعطاء والإحصاء، فكانت هذه الأحياء القبلية تقوم مقام المدن الصغرى التي يفصل بعضها عن البعض الآخر أبواب يحرسها رجال أشداء، وإذا قامت فتنة داخلية أُقفلت الأبواب وانقطعت المواصلات بين أحياء المدينة. والملاحظ أن تقسيم الكوفة اتخذ طابع الحياة الجاهلية الذي ساعد على إحياء

جذور العصبية القبلية وتأكيدها بدلاً من العمل على إندماج القبائل بصورة تُلغى معها العصبية القبلية، بل إن الحياة في الكوفة أخذت صيغة مماثلة للحياة في العصر الجاهلي من حيث وجود رؤساء قبائل لهم السيادة والكلمة النافذة على القبيلة بحيث يقف الشعراء على أبوابهم ويتصل الوالي بالقبيلة عن طريق زعيمها.

إنَّ أول ولاة عمر على الكوفة كان سعد بن أبي وقاص الذي افتتح العراق ومصَّر الكوفة فبنى مسجدها وبنى له داراً ووضع له باباً فاتهمته القبائل بأنه جعل لقصره باباً ليحُولَ بينه وبينهم، فأمر الخليفة بإحراق الباب[1].

لو أردنا تحليل سلوكية هذه القبائل نجد أن سياسة الخليفة عمر في التفضيل لقريش بالعطاء على من سواها، وتفضيل أولي السابقه من المهاجرين والأنصار أوجد نوع من التفاوت والطبقية جعل القبائل المفضولة تحقد على من آثرهم الخليفة بالعطاء وتعمل على الكيد بهم وترصد لهم كل صغيرة وكبيرة، هذا إذا علمنا أن معظم القبائل التي سكنت الكوفة ليست من قريش ولا من أولي السابقة، وهذا يعني أنها تأخذ أقل العطاءات.

بَقيَ سعد والياً على الكوفة سنة (١٧هـ، ١٨هـ، ١٩هـ) وفي سنة (٢٠هـ) إشتكى أهل الكوفة سعداً وقالوا: لا يُحسِن يُصلي،

---

(١) الطبري، ج٤، ص٤٨.

فعزله الخليفة وعيَّن عبد الله بن عبد الله بن عتبان ثم زياد بن حنظلة حليف بني عبد بني قصي حيث عمل قليلاً وألحَّ في الاستعفاء فأُعفي ووُلي عمَّار بن ياسر بعده. في سنة (٢١هـ) شكى أهل الكوفة عماراً وقالوا: (إنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه)، ونزا به أهل الكوفة فكتب إليه عمر: أن أقبل. فخرج بوفد من أهل الكوفة.. فأخبر قسم منهم (سعد بن مسعود الثقفي وجرير بن عبدالله) الخليفة بأشياء يكرهها فعزله[١]، ثم أمَّر عليهم أبا موسى فأقام سنة، وعنده غلام يبيع العَلَف فاشتكى الوليد بن عبد شمس ونفر من أهل الكوفة الى الخليفة مُدَّعين أن غلامه يتّجر في أعلافهم فعزله عنهم وأمَّر المغيرة بن شعبة بعد أن أشار على الخليفة عمرأن يولّي قوياً شديداً، وبَقِيَ المغيرة على الكوفة إلى وفاة الخليفة عمر سنة (٢٣هـ)[٢].

بإلقاء نظرة إجمالية نرى أن الكوفة قد شَهدَت في الفترة (١٧هـ ـ ٢٣هـ) ستة ولاة، وهذه الشكايات المتكررة تُعبّر عمَّا يجيش في نفوس هذه القبائل التي لم تتمكن المفاهيم الاسلامية من التغلغل الى مكامنها، ولا تزال تختزن جذور الجاهلية وعصبيتها القبلية في أعماقها بعد أن ركَّزتها الأحداث التي تلت وفاة الرسول والتفضيل في العطاء، فقدكان نظام الجند الذي سَنَّه الخليفة عمر أهم دوافع إحياء العصبية القبلية لقيامه على المفاضلة على أساس السابقة في الاسلام

(١) الطبري ج٤، ص١٦٣.
(٢) الطبري، ج٤، أحداث سنة (٢٢).

والقربى من الرسول، فكان يُرتّب الجند باعتبار القبائل والأجناس فيُقدّم العدنانيين (ربيعة ـ مضر) على القحطانيين لأن النبوة فيهم ثم يُقدّم مُضر على ربيعة لأن النبوة فيها، ثم يُقدّم قريش على غيرها ثم بني هاشم على من سواهم ثم بني هاشم حسب درجة القربى للرسول ﷺ[1]، وتفضيل أولي السابقة على غيرهم من العرب والأعاجم بالاضافة إلى سياسته القاضية بعدم اختلاط العرب بالشعوب الأخرى التي كانت سبباً في محافظة القبائل على تقاليدها وعاداتها الجاهلية بما فيها من تعصّب وتنابذ.

كانت هذه الأمور دافعاً للقبائل للبحث عن مثالب في الوالي يكيدونه بها لدى الخليفة إرضاءً لحقدهم النابع من هذه العوامل، ولا نجد أسباب أخرى سوى ما ذكرنا لأنها رأت وهي تحمل نزعة التعصب للدم والقبيلة أنَّ قريشاً قد استأثرت بالخلافة والزعامة والامتيازات المالية رغم أن الفتوحات تقع على عاتق القبائل الأخرى، ولبعض القبائل من الشرف والفضل في الجاهلية ما قد ضاع بظهور الاسلام، مع أنها ساهمت في إعلاء شأنه بالفتوحات ولكنها لم تحصد ثمار جهودها.

من جهة أخرى كان للشورى آثار خطيرة تجلَّت في خلافة الخليفة عثمان بن عفان حيث أذكت الطموح السياسي في نفوس الشخصيات البارزة من قريش، لذا قال رجلٌ من بني مخزوم لعمَّار بن

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٣؛ العراق في العصر الأموي، ص٢٤٥.

ياسر حين طالب باختيار الامام علي عليه السلام: (لقد غدوت طورك يابن سمية ما أنت وتأمير قريش لأنفسها).

وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح: (أيها الملأ إن أردتم ألاّ تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان)[١].

بينما يقول عمار بن ياسر: (إن أردتم ألاّ يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً)[٢].

هنا نلاحظ اختلاف اللهجة النابعة من المحتوى الداخلي للمتحدث، فعمار يتحدث بنَفَس إسلامي، بينما الأول يتحدث بنفس قبلي، فعليٌ عليه السلام كان مرشّح الأغلبية المسلمة، وعثمان كان مرشّحاً قريش التي تمتلك الصوت الأقوى في عملية الانتخاب، وبالنتيجة فإن الشورى آلت بالخلافة إلى أن تكون في قبضة بني أمية متمثلة بشخص عثمان، وأصبحت الخلافة منصب يطمح له الكثيرين بعد أن وجدوا أن قسماً من مرشحي الخليفة لا يفضلونهم في شيء، ولقد روى ابن قتيبة حديثاً لمعاوية اعترف فيه بأنه [لم يشتت بين المسلمين ولا فرَّق أهوائهم إلاّ الشورى التي جعلها عمر في ستة نفر، فلم يكُن

(١) الطبري، ج٤، ص٢٣٣.
(٢) الطبري، ج٤، ص٢٣٣.

رجلاً منهم إلاّ رجاها لنفسه ورجاها له قومه وتطلعت نفسه لذلك][1].

الكوفة في عهد الخليفة عثمان:

لو أردنا دراسة واقع الكوفة في عهد الخليفة عثمان نجد لِزاماً علينا دراسة سياسة الخليفة الادارية والمالية والاجتماعية.

١ـ السياسة المالية:

سنَّ الخليفة سياسة مالية لم تُعهد ممن قبله، فقد راح يغدق العطايا والهبات على آله وذويه وغيرهم من أعيان قريش وبعض أعضاء الشورى، ولم تكن هذه العطايا من ماله الخاص وإنما كانت من بيت مال المسلمين، وقد سار عُمَّاله بنفس مسيرته المالية فأخذوا ينفقون من بيوت المال المحلية على آلهم وأنصارهم والمقربين إليهم، وكإجراء مالي ثاني قام عثمان بالترخيص للناس؛ بأن ينقلوا فيئهم من الأرض الى حيث أقاموا، فلمن كان له أرض في العراق أو الشام أو مصر أن يبيعها ممن له أرض بالحجاز أو غيره من بلاد العرب، وقد سارع الأثرياء لاغتنام الفرصة والاستفادة من هذا الاجراء لتنمية ثرواتهم، فاشتروا الأراضي من الأمصار والبلاد المفتوحة وجلبوا الرقيق والأحرار لكي يستثمروا الأرض، وبذا نمت

---

(١) الإمامة والسياسة، إبن قتيبة.

ثرواتهم نمواً عظيماً وازدادت ثروات هذه الطبقة الطامحة وأخذوا يجمعون الأنصار وينشؤون علاقات المصاهرة مع القبائل الأخرى لكسب ولائها حتى أضحت هذه الفئة بمثابة مراكز قوى تسعى لغاية معينة، وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب إحصائيات عن ثروات البعض من الشخصيات في زمن الخليفة عثمان، فعلى سبيل المثال بلغت ثروة الزبير بن العوام الذي بنى داره بالبصرة وإبتنى دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية بعد وفاته (٥٠,٠٠٠ ألف دينار) وألف فرس وألف أمه، أما ثروة طلحة بن عبيدالله فقد كانت غلته من العراق كل يوم (١٠٠٠ دينار) وابتنى داره بالكوفة، أما عبد الرحمن بن عوف فقد ابتنى داراً ووسَّعها وكان على مربطه (١٠٠ فرس) و(١٠٠٠ بعير) و(١٠,٠٠٠ شاة) من الغنم وبلغ بعد وفاته رُبع ثمن ماله (٨٤,٠٠٠ دينار)، أما زيد بن ثابت فقد خلف حين مات من الذهب والفضة ما كان يُكَسَّر بالفؤوس غير ما خلَّف من الأموال والضياع بقيمة (١٠٠,٠٠٠ الف دينار)، ومات يعلى بن منية وخلَّف (٥٠٠,٠٠٠ الف دينار) وديون على الناس وعقارات ما قيمته (٣٠٠,٠٠٠ الف دينار) الى غير ذلك من الثروات التي لم تكن على عصر الخليفة عمر[١].

ومن جانبٍ ثانٍ تكونت طبقة أخرى فقيرة لم تملك أرضاً ولا

---

(١) مروج الذهب/ المسعودي، ج٢.

مالاً وليس لها عطاءات ضخمة، تلك هي طبقة الجنود المقاتلين وأهلهم وذراريهم، وقد تكوَّنت باستئثار الخليفة وعمَّاله بالفيء والغنائم وحرمان المقاتلين منها، مدَّعين أن الفيء لله لا للمحارب إلاً أجر قليل يُدفع إليه، وقد قال الخليفة عثمان عن أموال بيت المال: لنأخذنَّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام[1].

السياسة المالية للخليفة عثمان أدَّت إلى شعور طبقة الجند التي تنتمي الى مختلف القبائل بالغبن والاجحاف لأنها اشتركت في الفتوحات، ولكن ثمار الفتح استأثرت بها قريش فأجج ذلك حقد بقية القبائل على الطبقة القرشية التي أثرت على حسابها واعتبروها مغتصبة لحقوقهم، وزاد ذلك من إذكاء جذوة العصبية القبلية في النفوس بعد أن رأى المسلمون أن مآل الخلافة الاسلامية الى بني أمية الذين كانوا الى عهدٍ قريب العدو الأول للدين والرسول ﷺ.

من جانبٍ آخر فان هناك من ولاة عثمان من تعامل مع الأراضي المفتوحة على أنها أملاك لقريش، فالسواد (سواد العراق) فهو على حد تعبير سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة: (بستان لقريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه، فقال له الأشتر: تزعم أن

(١) شرح ابن ابي الحديد، ج٣، ص٤٩.

السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟ وتكلم القوم معه)[1].

٢ـ السياسة الادارية:

تبيَّن للمسلمين بعد وقت قصير من خلافة عثمان أنهم قد سَلَّموا السلطان الفعلي للمسلمين إلى آل الخليفة وقرابته من بني أمية وآل أبي معيط، فقد كان هو واجهة تقف خلفها أطماع بني أمية، فقد أسند ولاية الأمصار الكبرى (البصرة ـ الكوفة ـ الشام ـ مصر) ذات المنزلة العظيمة في الحرب والاقتصاد والاجتماع، فهي مركز الثروة المالية والزراعية لدولة الخلافة، منها تُحمل الأموال والأقوات وهي مراكز تجمع الجيوش الاسلامية الوافدة من شتى بقاع الأرض، وهي مركز عمليات الفتح التي كانت آنذاك في أوجها.

ـ ولَّى الخليفة عثمان على البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز، عمره ٢٥ سنة.

ـ ولَّى على الكوفة أخاه لأمه الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، من أمرهُ في الفسق معروف، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه[2].

ـ ولَّى معاوية على دمشق والأردن وكان والياً عليها زمن الخليفة عمر وضمَّ إليه ولاية حمص وفلسطين والجزيرة.

---

(١) ابن الأثير، ج٣، ص٥٧.

(٢) ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ.....﴾ آية ٦ سورة الحجرات.

ـ ولّى على مصر أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد ابن أبي سرح الذي بالغ في إيذاء الرسول والسخرية منه، كما أنَّ الخليفة أعاد عمه الحكم بن أبي العاص (وابنه مروان) وهو طريد الرسول ﷺ حيث نفاه من المدينة[1].

الجامع المشترك لهؤلاء الولاة هو قرابتهم من عثمان، وكانوا متهمين في دينهم وليسوا من أولي السابقة والجهاد، ولم يكن سلوكهم منضبط بالضوابط الاسلامية، بل كان ينطوي على العصبية القبلية والولاء لقريش، وظهر ذلك في مقولة سعيد بن العاص حين ادّعى أنَّ السواد بستان قريش فاعترض بعض أهالي الكوفة فنفاهم إلى الشام، وإذا بمعاوية يناظرهم في فضل قريش وتقدمها على سائر المسلمين، وقد أنكروا عليه، فقال زيد بن صوحان: كم تكثّر علينا بالأمرة وبقريش فما زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجار)، فنفاهم معاوية الى الجزيرة وأميرها عبد الله بن خالد بن الوليد فأذلَّهم وأظهر لهم سيادة قريش بامتهانه لهم وتحقير شأنهم وحطّ مقامهم، وفي مصر قسا عبد الله بن أبي سرح في جباية الخراج فظلم وأسرف وأظهر من العصبية لقريش ما أثار غيرها.

إن سياسة عثمان الادارية أثارت موجة عارمة من السخط بين المسلمين لما رأوه من ممارسات هؤلاء الولاة التي تنطوي على

---

(١) مروج الذهب/ المسعودي، ٢/ ٣٤٤.

العصبية والاستئثار بالأموال كما ثارت ثائرة المعاهدين من غير العرب لما عُوملوا به من مهانة وقسوة من قِبَل ولاته وعمّاله، كما أثارت سياسته سخط الصحابة لأن معالم الانحراف عن خط الرسالة أصبحت كبيرة بحيث بدأت تميل إلى العودة إلى الخط الجاهلي. رد الخليفة عثمان ازاء معارضي سياسته في المال والادارة من كبار الصحابة كان سبباً في مضاعفة النقمة عليه من قريش ومن عامة المسلمين وعاملاً من عوامل تعقيد الأزمة، فقد عارض سياسته عبد الله بن مسعود الهذلي حليف بني زهرة وكان خازناً لبيت المال فاعترضه عثمان بقوله:

[إنما أنت خازن لنا](١). ثم اشتدت معارضة إبن مسعود حتى انه قَدِم المدينة وكان الخليفة يخطب فقال: إنه قد قَدِمَتْ عليكم دابة السوء، فتكلم ابن مسعود بكلام غليظ فأمر به عثمان فجُرَّ برجله حتى كسر له ضلعان وغضب أهل العراق لمعاملة عثمان لابن مسعود إذ كانوا يحترمونه ويجلّونه لأنه من أقدم أصحاب الرسول ﷺ وأحدالثقات الكبار في القرآن(٢).

لو انعطفنا قليلاً على مدينة الكوفة لنرى سياسة ولاة عثمان معها وانعكاس ذلك على مواقفها، ففي سنة (٢٤هـ) بُويع لعثمان

(١) أنساب الأشراف ٥/ ٣٠، ٣١، ٣٦.
(٢) أنساب الأشراف ٥/ ٣٦.

بالخلافة وذلك في المحرم وفيها عَزَل الخليفة المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاَّها سعد بن أبي وقاص وفي رواية الواقدي أقر عثمان المغيرة على الكوفة مدة سنة ثم ولَّى سعد بعد ذلك، أي سنة (٢٥هـ) ثم عزلهُ وولَّى الوليد بن عقبة في سنة (٢٦هـ)، أما سبب عزل سعد وتولية الوليد أنَّ سعداً استقرض من عبد الله بن مسعود مالاً من بيت المال فأقرضه فلما تقاضاه لم يتيسَّر عليه فارتفع بينهما الكلام، فقال له ابن مسعود: إدّ المال الذي قِبَلَك. قال له سعد: ما أراك إلاَّ ستلقى شراً هل أنت إلاَّ ابن مسعود عبدٌ من هذيل[1]، فلما رُفِع أمرهما إلى عثمان غضب عليهما وانتزعها من سعد وعزله وغضب على عبد الله وأقرهُ واستعملَ الوليد بن عقبة وكان عاملاً لعمر على ربيعة بالجزيرة.

الملاحظ من سياق الرواية الروح الجاهلية والنَفَس القبلي الذي ينظر للعبد أو الموالي نظرة وتقييمه دون الاشراف وذلك بعد ست وعشرون سنة من الهجرة، صدور هذا الكلام من أحد الأشخاص الذي يعتبر من الصحابة السابقين فان كانت جذور الجاهلية قد عادت الى نفوس الصحابة ومن لهم القدمة نتيجة لسياسة الخلفاء فكيف بحديثي العهد بالاسلام الذين لم يأخذوا المفاهيم الأصيلة قبل أن تقلبها يد التحريف. من جانب آخر إذا كان الوالي للخليفة والقائم على تطبيق القانون الاسلامي في الكوفة لا يُراعي حُرمة أموال

---

(١) الطبري، ج٤، ص٢٥٢.

المسلمين ويماطل في سدادها فكيف بعامة أهل المصْر؟... بعد عزلِ سعد كانت ولاية الكوفة للوليد بن عقبة بن أبي معيط حيث بقي لمدة خمس سنين وقد غضب أهل الكوفة على الخليفة لتوليته أخاه لأمّهِ عليهم وقالوا: «بئسما أبدلنا به عثمان أبي اسحاق الهين اللين الحبر صاحب رسول الله ﷺ وولّى أخاه الفاسق الفاجر الأحمق الماجن»[1].

كانت تولية عثمان لأقاربه سابقة تعجَّب لها المسلمون حيث لم يعهدوا ممن قبلِهِ؛ أن يُولوا أحداً من أقاربهم، ومما زاد من حدة غضبهم ما يعرفونه عن الوليد فهو ممن أخبر عنه النبي ﷺ: (أنه من أهل النار)[2]، أما سلوكيات الوليد بن عقبة فيُروى أنه كان له نديم نصراني من الجاهلية يُدعى أبا زبيد كان يتغشاه عندما كان في المدينة والجزيرة وقد قَدِم عليه الكوفة ويُقال أنه أسلم في آخر أمارة الوليد[3]. شكى أهل الكوفة لعثمان سيرة الوليد حيث يروي المسعودي:

[إنَّ الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح فلما أذَّن المؤذنون بالصلاة خرج متفضّلاً في غلائله فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح فصلّى بهم أربعاً وقال: أتريدون أن

(١) البلاذري، ج٥، ص٢٩ـ٣٠.

(٢) المسعودي، ج٢، ص٣٤٤.

(٣) الطبري، ج٤، ص٢٧٣.

أزيدكم؟ وقيل أنه قال في سجوده وقد أطال: إشرب واسقني، فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأول: ما تزيد لا زادك الله من الخير والله لا عجب إلاّ ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً، وكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفي، وخطب الوليد الناس فحصبوهُ بحصباء المسجد فدخل مقرهُ يترنح ويتمثل بأبيات:

ولستُ بعيداً عن مدامٍ وقينةٍ
ولا يصفُ صلدٍ عن الخير معزل
ولكنني أروي من الخمر هامتي
وأمشي الملأ بالساحب المتسلسل

وأشاعوا بالكوفة فعله فظهر فسقه ومداومته على شُرب الخمر فهجم عليه جماعة من المسجد من بني أزد وغيرهم فوجدوه سكراناً مضطجعاً على سريره لا يعقل، فأيقظوه فلم يستيقظ ثم تقيأ عليهم ما شرب من الخمر فانتزعوا خاتمه وتوجهوا من فورهم إلى الخليفة فشهدوا عنده أنَّ الوليد شرب الخمر. فقال عثمان: وما يدريكما أنه شرب خمراً؟ فقالا: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية، وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه فزجرهما ودفع في صدورهما وقال: تنحيا عني فخرجا من عنده وأتيا علياً عليه السلام وأخبراه بالقصة فأتى الخليفة عثمان وهو يقول: دفعت الشهود وأبطلت الحدود.

فقال له عثمان: فما ترى؟

قال: أرى أن نبعث إلى صاحبك فإن أقاما بالشهادة عليه في وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة أقمت عليه الحد، فلما حضر الوليد دعاهما عثمان فأقاما الشهادة عليه ولم يُدلِ بحجة فألقى عثمان السوط إلى علي عليه السلام فقال علي لابنه الحسن: قُم يا بني فأقم عليه ما أوجب الله عليه.

فقال: يكفينه بعض من ترى. فلما نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحد عليه توقياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ عليّ السوط ودنا منه فلما أقبل نحوه سبه الوليد.... فأقبل الوليد يروغ من عليّ فاجتذبه عليّ فضرب به الأرض وعلاهُ بالسوط فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا.

قال: بل وشراً من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه][1].

لنا حول هذا الموقف وقفة تأملية نخرج منها بعدة ملاحظات:

١ ـ إنَّ اختيار الخليفة عثمان لولاته لا يتم على أساس التقوى والنزاهة وشدة التمسك بالتعاليم الاسلامية التي هي الركيزة التي يقوم عليها اختيار الولاة لضمان سلامة تطبيق الرسالة وحفظ القانون ومنع الانحراف، ولم يكن الوليد ممن يقارف المكروهات أو الصغائر أو

(١) المسعودي، ج٢، ص٣٤٥.

المعاصي في السر ويتظاهر بالورع والصلاح بحيث يحافظ على صورته كعامل من عمال الخليفة الاسلامي بل انه كان يرتكب الكبائر على مرأى ومسمع من العامة وينتهك الحدود ويُسيء إلى الشعائر مما أثار حفيظة المسلمين في الكوفة.

٢ ـ إن سلوك الخليفة يميل باتجاه عاطفته لأرحامه بخلاف سنَّة الرسول ﷺ الذي يقول: (لو أن فاطمة ابنتي سرقت لقطعت يدها) ودليلنا في ذلك أنه ردَّ الشهود وزجرهما فذهبا إلى علي عليه السلام الذي حاسبه على إبطال الحدود واضطره إلى استدعاء الوليد بعد أن فشا الأمر وهذا يعني أن العصبية للأرحام أقوى من الحميَّة للدين والرفض للمنكر ويظهر تساهل الخليفة مع أرحامه في السياسة المالية عندما ردَّ شكوى عبد الله بن مسعود ضد الوليد بن عقبة عندما ماطل في رد ما اقترضه من بيت المال، فكان من الخليفة عثمان أن شجَّع الوليد بن عقبة وكتب إلى ابن مسعود: [إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال، فطوح ابن مسعود المفاتيح، وقال: كنت أظن أني خازن للمسلمين، فأمَّا إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك][1]. وهذا يعكس جانبان:

أ ـ الانتهاك الصارخ للأحكام الاسلامية والتعامل مع أموال المسلمين على أنها أموال خاصة للخليفة وولاته لهم التعامل بها كيف

(١) البلاذري، ج٥، ص٣١.

شاءوا ودون حساب أو مسؤولية من قبيل الله تعالى أو المجتمع المسلم.

ب ـ وجود صحابة على درجة عالية من التقوى والورع يقفون بوجه المخالِف كائناً من كان، بل ويحاسبونه على الانحراف من خط الرسالة وربما يكون وجود أمثال هؤلاء عاملاً في تقوية الوعي والحس الديني في الكوفة، فلعبد الله بن مسعود موقفان متشابهان مع سعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة حين ماطلا في سداد القرض من بيت المال.

٣ ـ من مجمل شكايات أهل الكوفة من ولاتهم، ولا سيما الشكوى من الوليد يتبين أن هناك حس ديني ووعي للأحكام والحدود أوجد حالة رفض لأي شكل من أشكال المنكر المتجسّد في مراقبتهم لسلوكية الولاة ومتابعة أعمالهم بشكل يدفعهم إلى الشكوى إلى الخليفة وإن لم يستجب لهم ذهبوا إلى الشخص الذي يعتقدونه المصداق الحقيقي للتطبيق الأمثل للرسالة، وقد يعود ذلك إلى أن قسماً كبيراً من أهل الكوفة هم من قبائل اليمن التي عاشت مستقرة في دول لها نظام وحضارة تجعلها تحمل عقلية قادرة على تفهم أحكام الاسلام بخلاف الأعراب البدو الذين لم يعرفوا القانون والنظام وربما يكون حسن إسلامهم وإستقائهم لتعاليم الدين على يد شخصيات تميزت بدرجة عالية من الوعي والورع.

بعد أن حُدَّ الوليد بعد ثبوت شرب الخمر عليه لم يجد الخليفة بداً من عزله واستخلافه بسعيد بن العاص إبن أمية وذلك سنة (٣٠هـ) وحين وصل هذا الأخير إلى الكوفة أبى أن يصعد المنبر حتى يُغْسَل، قال: إن الوليد كان نجساً رجساً[١].

[كتب سعيد إلى عثمان في أهل الكوفة: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهل الشرفِ منهم والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما يُنظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها[٢] فكتب إليه عثمان: أما بعد ففضّل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليك تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم إلاَّ أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكلٍ منزلته، فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل القادسية واستنبأهم عن حاجة ذي الحاجة منهم وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخَلصَ بالقُرّاء في سمرهِ فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القاله والاذاعة][٣].

مما تقدم نستطيع تلمُّس الروح القبلية بين ثنايا كتاب سعيد إلى

(١) المسعودي، ج٢، ص٣٤٦ (مروج الذهب).
(٢) الطبري، ج٤، ص٢٧٩.
(٣) الطبري، ج٤، ص٢٨٠.

عثمان، فهو يريد إعادة الطبقية ورفع فئة على أخرى، فأجابه عثمان إلى ذلك، وفي حادثة أخرى استفز سعيد وجوه أهل الكوفة بنَفَسِهِ القبلي وهو يَدَّعي أن السواد بستان لقريش فثار القوم وما تلا بعد ذلك من نفيهم وكان ذلك سبباً لخروج سبعين راكباً من أهل الكوفة يشكون سوء سيرة سعيد إلى عثمان ويسألونه عزله عنهم فمكثوا أياماً (فيهم الأشتر) لا يخرج لهم من عثمان في سعيد شيء كراهة أن يعزله، امتدت أيام أهل الكوفة بالمدينة واستدعى عثمان عماله ليستشيرهم وأقاموا أياماً لا يَرُدَّهم حتى كثر الخراج في ولاياتهم فجمعهم عثمان واستشارهم فأشار عليه سعيد أن يبعثهم في الفتوحات ليشغلهم عن التحدث والشكاية على الولاة فسمع عمرو بن العاص مقالتهم وأخبر طلحة والزبير الذين أخبرا الأشتر بذلك وأعاناه بالمال ليعود إلى الكوفة ويخبر أهلها بأن عثمان أمَّر سعيداً عليها وبالتالي يمنعه من الدخول، ففعل وأجبر بذلك عثمان أن يُولي عليهم من يرضون وهو أبو موسى الأشعري[1].

من هذه الحادثة يتبين أن المجتمع الكوفي كان يبحث عن عاملٍ غير مُتَّهم في دينه لذا نراهم لا يُقرون الولاة على إنحرافاتهم بل ويقفون في وجه الخليفة نفسه.

من جهة الخليفة عثمان فانه لم يضع المقاييس للأحكام

(١) مروج الذهب ـ المسعودي، ج٢.

الاسلامية كفاصل للحكم بين مشاكل الولاة وأهل الكوفة بل كان في أكثر الحوادث كما رأينا يقف الى جانب الولاة من أرحامه، لذا فقد ثار سخط العامة عليه وعلى ولاته.

الشريحة الثانية من مجتمع الكوفة المتمثلة في الموالي التي عانت من اضطهاد الولاة واحتقارهم لها لأن أغلب هؤلاء ذو نزعة قبلية، وقد تفاقمت هذه النزعة بعد مقتل الخليفة عمر على يد أبو لؤلؤة مولى المغيرة وتفاقمت في عهد الخليفة عثمان الذي كتب إلى عماله بتفضيل العرب على الموالي(١)، وقد سرت هذه النزعة إلى القبائل اتجاه الموالى وقد عدَّد ابن عبد ربه عدة أمثلة لاحتقار العرب للموالي، فقد كان العرب يقولون: لا يقطع الصلاة إلاّ ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى، وكانوا لا يكنونهم إلاّ بالكنى ولا يدعونهم إلاّ بالأسماء والألقاب ولا يمشون في الصف معهم ولا يقدمونهم في الموكب، وإن حضر طعام قاموا على رؤوسهم وإن أطعموا الموالي لسنة وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان لئلاَّ يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ولا يدع العرب مولى يصلي على الموتى إذا حضر أحد من العرب وكان العربي إذا أراد الزواج من بنات الموالي خطبها من مولاها وسيدها لا من أبيها أو أخيها وإن زوّجها أبوها أو أخوها بدون رضا سيدهم أُعتبر العقد باطلاً(٢).

---

(١) الطبري، ج٤، ص٢٧٩.

(٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج٣، ص٤١٣.

أما زواج الموالي من عربية فهو جريمة لا تغتفر وللوالي أن يفرّق بينهما، وعلى العموم هناك نظرة لدى العرب للموالي حيث أنهم يعتقدون أن مهنتهم ليست الحرب فالموالي لم يُخلقوا إلاَّ للحِرَف والمهن الوضيعة كما قال عربي: [يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا][(١)].

بعد النظر والتأمل في هذه السلوكية يتبين لنا التنافي مع مبدأ العدالة الاسلامية الذي يجعل الناس سواسية ومقياس التفاوت هو التقوى لا غير، وقد بدأ الانحراف عن هذا المقياس عندما وضع الخليفة عمر مبدأ التفضيل في العطاء وتفاقم أكثر حين اتسعت شقة الانحراف بخلافة الخليفة عثمان الذي جعل بني أمية يصعدون على أكتاف باقي المسلمين وعزَّز الطبقية والروح القبليَّة وعمَّق نعرة التعصب للعرب ضد غيرهم وقد تجلَّى لنا ذلك في الحوادث المذكورة في الصفحات السابقة في سلوكية الولاة مع الرعية.

٣ـ اضطهاد الصحابة المعارضين:

الجانب الثالث لسياسة الخليفة عثمان هو اضطهاد المعارضين من كبار الصحابة الذين وقفوا بوجه الانحراف واعترضوا على سياسة عثمان في المال والادارة وتجلى ذلك في المواقف التالية:

---

(١) العقد الفريد، ج٣، ص٤١٤.

١ ـ موقف الخليفة مع عبد الله بن مسعود وذلك حين طالب الوليد بن عقبة بإعادة المال الذي اقترضه، فأبى ذلك فرفع أمره إلى الخليفة، فكان أن شجع الوليد وكتب إلى ابن مسعود [إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد] فطوح ابن مسعود بالمفاتيح وقال: [كنت أظن أني خازن للمسلمين فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك][١].

وقد كُسِرَ ضلعا ابن مسعود بعد أن أشخصه عبد الله بن عامر الى الخليفة وغضب لذلك أهل الكوفة وانحرفت بسبب ذلك هُذيل لأنه كان حليفاً لها[٢].

٢ ـ موقف الخليفة من عمار بن ياسر حين عارض سياسة عثمان فشتمه عثمان وضربه حتى غُشِيَ عليه سائر النهار ولكن هذا العنف لم يثنِ عماراً بل استمر في معارضته فشتمه الخليفة وأمر به فطُرِحَ على الأرض ووطئه برجليه وهما في الخف حتى أصابه الفتق[٣] وقد انحرفت لذلك بني مخزوم لأن عمار حليفاً لها.

٣ ـ معارضة أبي ذر لسياسة الخليفة فنفاه الى الشام لاعتراضه على السياسة المالية للخليفة الذي كان يُقرّب من يُسَوّل له ويُوجِد

---

(١) البلاذري، ج٥، ص٣١.

(٢) المسعودي، ج٢، ص٣٤٧.

(٣) المسعودي، ج٢، ص٣٤٧.

المخارج لتصرفاته ككعب الاحبار وعندما يعارض الصحابة هذه السلوكية يواجهها الخليفة بالقوة لأنه يريد إمضاء سياسته بأي صورة، لذا نفاه إلى الشام من أجل أن يُسكِت دعوة الحق ولكن أبا ذر وجد أن سياسة معاوية تشبه سيرة الملوك فهو يلبس الحرير ويكنز الذهب والفضة، وتمثّل تصرفاته خروجاً صارخاً عن الاسلام، فبدأ يؤلّب الناس ضده وأخذت الجموع تجتمع إليه فكتب معاوية إلى عثمان بشأنه، فكتب إليه أن يُرسله على بعير عليه قتب يابس ومعه خمسة من الصقالبة يطيرون به فَقَدِم المدينة وقد تسلخت أفخاذه وكاد أن يتلف وبعد ذلك عاود أبا ذر الاعتراض على سياسة الخليفة فنفاه إلى الربذة وأمر الناس بمجافاته فسُيّر إلى الربذة ومات هناك.

ازاء هذه السياسة الادارية والمالية واضطهاد الصحابة الكبار وعدم الالتفات لأي نصح أو تحذير والامعان على المضي في سياسته ثار عامة المسلمين وسخطوا على الخليفة وولاته، وكان قسم من هذه المعارضة مدفوعة بدوافع ذاتية، فاستغلت شيوع التذمر ضد الخليفة فعملت على تأجيج السخط وروح التذمر ضده لاستعجال نهايته والوصول إلى مآربها في الحكم بعد أن أوجد مبدأ الشورى في نفسها الطموح الى السلطة وساعدت سياسة العطاء على تأكيد روح العصبية القبلية وجاءت سياسة عثمان المالية التي ساعدت على تجميع الثروات الطائلة وسياسته في توزيع الأراضي في البلاد المفتوحة على تكوين الاقطاعيات الضخمة، فتضخَّم الطموح وكَبُرَ الأمل واندفع في

سبل التخطيط للوصول من خلال جمع الاتباع والانصار كما جاء في الطبري: [فلما وَلِيَ عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم الناس]. يقابل هذه الطبقة طبقة المحاربين والمسلمين الجدد المحرومة من كافة الامتيازات وكانت أسباب تذمرها متوفرة.

مقتل الخليفة عثمان:

إعتبر كثير من المسلمين وبالخصوص طبقة المحاربين أن بطانة الخليفة وولاته هي المسؤولة عن كثير من الانحرافات ورأوا أنهم قد جمعوا الثروات واستأثروا بها دون عامة المسلمين مُدَّعين أن الفيء لله وليس للمحارب، وكانت طبقة الجند المحاربين تمثل طبقة فقيرة ومعدمة بعد أن منع الخليفة عثمان توزيع الأراضي المفتوحة على المحاربين واعتبرها من واردات بيت المال، فكانت اقتصاديات الجند تعتمد على العطاء من بيت المال الذي يتفاوت به الأفراد حسب السابقة والقربى والانتماء وأتت تصرفات الولاة كسعيد بن العاص الذي استثار الكوفيون مدَّعياً أن السواد بستان لقريش وما تبعه من نفي وجوه الكوفة الذين ثاروا لمقالته وتهجيرهم الى الشام ثم إلى الجزيرة.

اضطهاد الخليفة لعدد من الصحابة الكبار الذين وقفوا بوجه الانحراف، حمل أهل الكوفة على انتقاد سياسة الخليفة في مجالسهم حتى لقد تأججت روح الرفض والاستنكار لممارسات الخليفة

وبطانته حتى كانت الكوفة كاليبس الذي شملته النار كما يذكر ذلك الطبري، وازاء عدم الاستجابة للتغيير والعودة الى الخط الاسلامي بدأت مرحلة الثورة حين استغلَّ المحاربين من أهل مصر والكوفة والبصرة موسم الحج وحضور الولاة الى المدينة فخرجوا من كل مدينة ما بين (١٠٠ ـ ٦٠٠) رجل وهدفهم إرغام الخليفة على تغيير بطانته وتعديل الانحراف.

يروي المسعودي قصة الثورة: إن الثوَّار أتوا إلى المدينة مطالبين عثمان بالتغيير، فأرسل اليهم علياً عليه السلام واعداً إياهم بالتغيير فهمُّوا بالرجوع وفي الطريق رأوا غلام الخليفة عثمان ومعه كتاب الى والي مصر يدعوه فيه إلى الانتقام من الثوار، فعادوا إليه وحاصروا داره (٤٩ يوماً) وقتلوه. أما الطبري فيروي أن الثوار: [أطافوا بدار عثمان وأبى إلاَّ الاقامة على آمره، وأرسل إلى حشمه وخاصته فجمعهم، فقام رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقال له (نيار بن عياض) وكان شيخاً كبيراً فنادى يا عثمان، فأشرف عليه من أعلى الدار، فناشده الله وذكَّره الله لما اعتزلهم، فبينا هو يراجعه الكلام إذ رماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم... فقالوا لعثمان عند ذلك إدفع إلينا قاتل نيار بن عياض فلنقتله به، فقال: لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي، فلما رأوا ذلك ثاروا الى بابه وأحرقوه وخرج عليهم مروان بن الحكم من دار عثمان في عصابة وخرج سعيد بن العاص في عصابة وخرج المغيرة بن الاخنس الثقفي حليف

بني زهرة في عصابة فاقتتلوا قتالاً شديدةً. . . حتى فتح عمرو بن حزم الأنصاري باب داره وهو الى جنب دار عثمان ثم نادى الناس فأقبلوا عليه من داره فقاتلوهم في جوف الدار حتى انهزموا وخلَّى لهم عن باب الدار فخرجوا هُرّاباً في طرق المدينة وبقي عثمان في أناس من أهل بيته وأصحابه فاقتتلوا معه وقُتِلَ عثمان][(١)].

بتأمل الروايتين على الاختلاف بينهما نخرج بحصيلة مفادها أن الغضب الشعبي قد أخذ مأخذه بعد أن لم يجد المسلمون أملاً في التغيير وإيجاد حلول لكثير من الانحرافات على يد الخليفة الذي كانت بطانته تزيّن له عدم الاستجابة لمطاب الثوار حمايةً لمصالحها وامتيازاتها التي بنتها على حساب المسلمين معتمدة على صِلاتها بالخليفة؛ مما دفع بالثوار وخاصة في الأمصار ممن وجدوا في الاسلام بارقة أمل في انشاء دولة يسود فيها العدل ويُطبق فيها القانون الإلهي، فإذا بها تُفاجأ بأن هذا الدستور الإلهي الذي يعدهم بحياة أفضل لا يأخذ طريقه إلى التطبيق وإنما يبقى في المصاحف ترتله الأفواه في المساجد، ومع وجود الفضلاء من الصحابة الذين تميزت سيرتهم بالعدل والتقوى جعلت المسلمون يلجؤون إليهم في إيجاد الحلول أو محاولة التأثير على الخليفة كما رأينا في لجوء أهل الكوفة

(١) الطبري، ج٤، ص٣٨٣.

إلى الامام علي عليه السلام عندما ردهم الخليفة في أمر الوليد بن عقبة وغيرها من الأحداث.

كانت مجريات الأمور والأحداث تشير إلى أن القائمين على تطبيق الرسالة ليسوا بالكفاءة المطلوبة وجعل هذا الأمة تجني ثمار إنتهاكات هؤلاء وانحرافاتهم، لذا بدأت الأغلبية تبحث عن الحل وتصل الى قناعة مفادها ضرورة وجود إمام معيَّن من قِبَل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُضمن معه سلامة تطبيق الرسالة، وتجسَّدت هذه القناعة في شخص الامام علي عليه السلام وبلورتها سلوكية الخلفاء الذين كانوا يلجؤون إليه في حل الأمور المعضلة فكانت النتيجة بعد مقتل الخليفة عثمان هو لجوء الأمة وإلحاحها بتولية الامام علي عليه السلام فهي تريد حلولاً لواقعها وتعديلاً لمسار الانحراف.

أهل الكوفة في عهد الإمام علي عليه السلام:

بعد مقتل الخليفة عثمان اتجه الناس إلى الامام علي عليه السلام يبايعونه، فأبى عليهم لأن الانحراف قد قطع شوطاً طويلاً وان التغيير يتطلب الوقوف بوجه الطبقة التي كوَّنت لها كيانات مالية ومصالح في الفترة السابقة والتي ستقف معارضة للتغيير بكل قواها مستعينة بالأتباع والثروات التي كوَّنت في هذه الفترة مراكز قوة لها ثقلها في المجتمع فتكون النتيجة خلق فتنة وبلبلة تعمي البصائر عن رؤية الحق وهذا ما حصل بالفعل.

لقد رأى الامام علي عليه السلام بعين البصير أنه سيستلم الخلافة والأمة على عدة أصناف:

أ ـ الطبقة المحرومة التي تقع عليها الضغوط الاجتماعية والاقتصادية، وهي التي لم يشملها التفضيل في العطاء من ناحية السابقة أو الانتساب لقريش أو الانتماء العربي، لذا فانها كانت تعاني الفقر ويقع عليها جور الولاة وقد كان أغلب أهل الكوفة من هؤلاء، فكما علمنا أن أغلب قبائل الكوفة هي ليست من قريش كما أن أغلبها حديثي عهد بالاسلام وهناك شريحة من الموالي والعبيد وكانت هذه الطبقة بصورة عامة تعقد الآمال على خلافة الامام علي عليه السلام لأنها ترى فيه رمز العدالة الذي سيضعها على كفة المساواة مع أولي الامتيازات، وقد اندفع هؤلاء الى الامام علي عليه السلام يطلبون منه تولي الخلافة.

ب ـ الطبقة ذات الامتيازات التي أثراها مبدأ الخليفة عمر في العطاء وسمح لها قانون عثمان في تبديل الأراضي المفتوحة بأرض في الحجاز على تكوين اقطاعيات ضخمة وتكوين رؤوس أموال رهيبة كما ذكرنا ذلك سابقاً، ومن جانب ثانٍ فإن مبدأ الشورى خلق فيها الطموح السياسي لتولي خلافة المسلمين، ومن أمثال هؤلاء طلحة والزبير وغيرهم.

ج ـ طبقة الطلقاء التي تسعى لاستعادة أمجادها الجاهلية في

السيادة والثراء وأغلب هؤلاء أسلموا بعد أن لم يجدوا بُداً من ذلك وأضمروا في دواخلهم الحقد على الاسلام وعملوا بصورة خفية على نخر البناء والعودة الى المفاهيم الجاهلية بأسلوب مبطَّن ظاهره التدين وباطنه خرق الأحكام الاسلامية.

استغلَّت هذه الفئة عدة ثغرات استطاعت النفوذ منها كمبدأ الخليفة عمر في إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم الذي كان يميز المخلص للرسالة من المنافق وضعيف الايمان، كما استغلت العصبية القبلية ورابطة الدم في العودة الى الصف الأول بعد أن ميَّزها الرسول ﷺ للأمة فاستغلَّت ارتباط الخليفة عثمان بقومِه وعصبيته فعادت للظهور على مسرح الأحداث متبوئة الصدارة، ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن أبي سرح، الحكم بن العاص، الوليد بن عقبة، معاوية وعائلة أبي سفيان، وأغلب هؤلاء متهمون في دينهم وولائهم للاسلام، وقد ساعدهم ولاء الخليفة عثمان لبني أمية على استلام مقاليد الولايات وحكم المجتمع بالمفاهيم الجاهلية.

لكلٍ من الفئتين الأخيرتين أنصار وموالون وأتباع، وهؤلاء الأتباع على أصناف:

١ ـ من يعتنق نفس المفاهيم ويدين بها ويدافع عنها لأنه من أصحاب الامتيازات أو مدفوع بدوافع العصبية القبلية التي لم تستأصل جذورها من المجتمع بل عمل الانحراف على تأكيد هذه الروح.

٢ ـ فئة المدفوعين تحت ضغط الاغراء المالي سيما بعد أن كوَّن أصحاب الامتيازات الاقطاعيات وأصبحوا يغدقون الهدايا والهبات على الأنصار فاشتروا بذلك الموالي والاتباع.

٣ ـ فئة المُضَلَّلين الذين لم يصلهم صوت الرسالة الحق بل سمعوا الأصوات التي تبث أفكار الضلال والانحراف القريبة منها وأصدق مثال على هذه الفئة هم أهل الشام الذين لم يصلهم الاسلام إلاَّ عن طريق معاوية فقاتلوا علياً عليه السلام على أنه لا يصلي وأنّه هو مَن قتَل عثمان معتقدين أنهم بذلك يحامون عن الدين.

ازاء هذا الخليط غير المتجانس في الولاءات والأفكار، أدرك الامام علي عليه السلام أن عملية التغيير ليست سهلة ولا تصمد لفتنتها كثير من النفوس التي تطلب العدل وتقويم الانحراف لأن منطق الحق سهلٌ أن يطلبه الانسان بلسانه ولكن حين ينتقل الى ميدان التطبيق ويصطدم بعقبات الأنا وحب الذات والمصلحة الشخصية فهو في غاية الصعوبة لتطلبه التضحية وتحمل المشاق ومعاناة الطريق المؤدي الى الهدف، لذا قد يأخذ العناء والتعب النفوس في منتصف الطريق فلا تقوى على التحمل فتتراجع القهقرى منقلبه الى الصف المعادي أو قد تقف منزوية بعيداً عن مسرح الأحداث مختارة زاوية حيادية مبتعدة عن صخب الصراع بين الحق والباطل وضجيجه، لذا فقد أبى الامام عليه السلام قبول الخلافة ليُشعِر الأمة أنه إن استلم مقاليد الأمور

ركب معهم المركب الصعب الذي ستصارعه أمواج الفتن التي يسوقها أصحاب المطامع والامتيازات، فأراد بذلك أن يبيّن لهم أن الطريق معه ليس معبَّداً بالزهور والأماني وإنما هو طريق ذات الشوكة وهو حربٌ على المنحرفين والمتأولين، فقال لهم:

[دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والحجة قد تنكرت واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيراً لكم من أمير][1].

بعد توضيح الأمور أصرَّ المسلمون على أن يلي الامام عليه السلام الحكم فقَبل بعد قيام الحجة عليه بوجود الناصر، لذا فما أن استلم مقاليد الأمور حتى أعلن المعالم الرئيسية لسياسته التي تستهدف تعديل المسار المنحرف وإعادته الى الخط القويم بالتطبيق الصحيح للرسالة وكانت أهم هذه المعالم:

١ ـ إلغاء مبدأ التفضيل في العطاء.

٢ ـ عزل كافة الولاة المتهمين في دينهم وتعيين الولاة على أساس الزهد والتقوى.

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٢١٧.

٣ ـ إلغاء الفوارق الاجتماعية كالتمييز بين العرب والموالى.

وعلى أساس المبدأ الأول تم الاصلاح المالي والاقتصادي، فقد أعلن الامام عليه السلام المساواة بين الناس في العطاء، فتم بذلك إلغاء الطبقية الناشئة من التفاوت في الملكية والثراء وتمت مصادرة جميع اللأموال والقطائع التي وهبها الخليفة عثمان لأقاربه وبطانته، فقال عليه السلام: [أيها الناس إني رجل منكم، لي ما لكم وعليَّ ما عليكم وأنا حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمر به، ألا وإنَّ كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق لا يبطله شيء ولو وجدت قد تزوج به النساء وملك الاماء وفُرّق في البلدان لرددته، فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق][١].

كما وأنه أعلن تقسيم المال بالسوية لا فضل فيه لأحدٍ على أحد وليست السابقة في الدين والصحبة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والقربى منه سبباً للاثراء والكسب المالي، لذا قال عليه السلام: [فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم ولا يتخلفن أحد منكم عربي

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٢٦٩.

ولا أعجمي كان من أهل العطاء أو لم يكن إلاَّ حضر إذا كان مسلماً][1]، وكان يوم العطاء، فلم يختلف العطاء بين فردٍ وفرد، بل أنَّ كل شخص قد أخذ ثلاثة دنانير وتخلَّف في هذا اليوم طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ورجال من قريش وغيرها[2].

بهذا الاجراء تم القضاء على الطبقية والتفاوت ولكن لم ينل هذا الاجراء رضى أصحاب الامتيازات، بل كان سبباً في تشكيل فئة معارضة لحكم الامام عليه السلام وقد حاولوا التفاوض مع الامام على أن يترك لهم بعضاً مما في أيديهم فأبى لأن عدل علي عليه السلام يأبى المساومة في الحق.

الاجراء الثاني كان عزل كافة الولاة المتهمين في دينهم الذين كان جورهم سبب الثورة على الخليفة عثمان فعزل عبد الله بن عامر عن البصرة وعبد الله بن أبي سرح عن مصر ومعاوية عن الشام ووضع ولاة جدد ممن يُعرفون بالنزاهة وحسن السيرة كسهل بن حنيف على الشام وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وعلى البصرة عثمان بن حنيف وعلى الكوفة أبي موسى الأشعري، والملاحظ أن جميع

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٣٧.
(٢) شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٣٧.

هؤلاء ليسوا من قريش، وبذا فقد عالج إحدى الانحرافات التي أحيت العصبية القبلية في النفوس.

الاجراء الثالث هو تحجيم وتشذيب روح العصبية القبلية والقضاء على التفاوت الطبقي الناشىء من الانتساب أو الهوية وذلك بمبدأ العدل والمساواة في العطاء والمراكز الادارية والمساواة بين الجميع أمام القانون، فليست هناك ميزة لقبيلة على أخرى أو لعربي على موالي أو لحرٍ على عبد، وقد ترجم الامام عليه السلام هذه السياسة بقوله: [الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه][1].

من جملة الاجراءات التي اتخذها الامام عليه السلام هو نقله لمركز الخلافة من المدينة إلى الكوفة، وأراد بهذه الخطوة إنشاء وتربية طليعة عقائدية واعية تسير خلفه لانجاز كل المهام التي عليه انجازها، ومن ضمنها إيقاف الانحراف، وتقويم المسار والعود به إلى الخط الاسلامي الأصيل، لذا فانه بعد توجهه لحرب أهل الجمل انعطف على الكوفة ليتخذها مقراً ومركزاً للخلافة، ولهذه الخطوة أسس ودعائم متينة قد تبلورت في ذهنية الامام عليه السلام الذي خَبَرَ الناس طيلة السنين السابقة من خلال الأحداث وتفاعلهم معها، ونستطيع تلمُّس بعض هذه الأسس:

---

(١) تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، ص٩٦١.

١ ـ إن الكوفة تمثل قاعدة شعبية تحمل الولاء الجماهيري لشخص الامام عليه السلام باعتباره خير من يقوم بأمر الأمة، ويمكن له الاعتماد عليها في تصفية الخارجين على الطاعة، وهناك من شخصيات الكوفة البارزة وأشرافها التي تملك التأثير والنفوذ في شريحة كبيرة من أهل الكوفة كحجر بن عدي الكندي، ومالك الأشتر النخعي وزيد بن صوحان وغيرهم، وقد نتلمَّس بعضاً من ذلك في كتابه إلى أهل الكوفة حين توجه إلى حرب أهل الجمل في البصرة حيث جاء فيه: [بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني اخترتكم وأحببت النزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عزَّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه][1].

٢ ـ قرب الكوفة خاصة والعراق بصورة عامة من الشام التي تمثّل الجيب الأخطر للمتمردين والخارجين على الطاعة، وقد أراد الامام محاصرتهم من جهتين: الأولى الكوفة التي ستكون العاصمة ومركز التحرك فتكون قريبة جداً من الشام بصورة تتيح له مراقبة ومتابعة الأحداث كما جاء في قوله عليه السلام: [لأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها][2]. والجهة الثانية هي مصر وواليها قيس بن سعد

(١) الطبري، ج٤، ص٤٧٥.
(٢) الدينوري، ص١٥٢.

الذي يعتبر من المخلصين للإمام، وقد أدرك معاوية ذلك فحاول أن يهادن قيس ويستميله إلى جانبه ولكنه لم يفلح.

٣ ـ إن المدينة التي تعتبر أغلبها أنصار لعلي عليه السلام قد استوعبت المفاهيم الاسلامية من خلال الفترة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيها ووجود الثلّة المخلصة الذي جعل منها قاعدة حصينة (إذا جاز لنا القول) ضد الانحراف، بينما العراق وبالذات الكوفة تعتبر من الأمصار الجديدة التي لم تُتح الفرصة ليتشرب بتعاليم الاسلام الصحيحة بل العكس فإن أغلب من تولوا أمرها يعتبرون غير مؤهلين بالمنظار الاسلامي، لذا أراد الامام بناء قاعدة موالية في هذه المدينة من خلال أخذ المفهوم والتطبيق الصحيح في آن واحد.

بملاحظة التسلسل الزمني للأحداث حيث مقتل الخليفة عثمان في سنة (٣٥هـ) وفي نفس السنة تولى الامام إمرة المؤمنين وحدثت معركة الجمل حيث توجه الامام الى الكوفة عاصمته الجديدة ليدير أمور الدولة وعلى رأسها تصفية آخر جيب للمتمردين المتمثل في شخص معاوية، وقد كانت سياسة الامام علي عليه السلام ومنهجه في الحكم يمثل الواقع العملي للرسالة، فقد رأى الناس في سلوكه العدل والنزاهة والأمانة على أمور الأمة والاخلاص للدين والرسالة، فقد كان يحاسب عماله حساباً شديداً مع ما عُرِفَ عنهم من الاستقامة والنزاهة وقد وصفه ضرار بن ضمرة قائلاً:

[كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فضلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يعجبه من الطعام ما خَشُن، ومن اللباس ما قصُر. يُعظّم أهل الدين ويرحم المساكين ويطعم في المسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة].

بسياسة أمير المؤمنين القائمة على العدل والانصاف والايمان استطاع في فترة حكمه القصيرة المثقلة بالحروب والفتن أن يبني شخصيات رسالية آمنت بمفاهيم الاسلام الحق واتخذتها منهجاً في حياتها لا ترضى بسواها بدلاً وتحارب الانحراف عن هذا المسار، وقد تجسَّد ذلك في المسيرة الممتدة في حياة الامام علي عليه السلام والامام الحسن عليه السلام والامام الحسين عليه السلام إلى يومنا هذا، وكأن الامام أراد بخطوته في الاستقرار في الكوفة أن يُوجِدْ نواة للاسلام الصحيح في هذه المنطقة تمتد آثارها إلى الحاضر والمستقبل القريب البعيد.

كانت المهمات الملقاة على عاتق الامام عليه السلام التي تمثل مخلَّفات الفترة السابقة مهمات شاقة حيث تضخّم الانحراف وامتدّ وأصبح خطراً حقيقياً على الاسلام، ومن الطبيعي والحالُ هذه أن تكون المواجهة صعبة لا تقوم لها أنفس هي في طور البناء بل هناك كثير من النفوس الرخوة القابلة للاهتزاز والتأثر بالحق والباطل؛ مما جعلها مفتونة لا تـدري من تتبـع بل أنَّ إستمالتها قد لا تصعبُ على من تمرَّس على

المكر والدهاء والخديعة مضافاً إلى أن طبيعة المواجهة وما تحتاجه من قوة بصيرة وبذل للنفس والمال والتضحية بالأرواح من أجل العقيدة تعتبر مسألة مرهقة للنفوس غير المحصَّنة والسهلة الاقتحام، لذا كان ما كان من أحداث تجسَّدت في وقائع نذكرها فيما يلي:

١ـ دور الكوفة في معركة الجمل:

بايعت الكوفة الامام علياً عليه السلام وولَّى عليها أبا موسى الأشعري وسارت الأمور على ما يرام دون أن يصدر أي سخط أو اعتراض من قِبَل أهل الكوفة إلى أن خرجت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عسكرها الى البصرة حيث أرسلت كتابان إلى الكوفة؛ أحدهما إلى العامة والآخر إلى زيد بن صوحان خاصة، وقد جاء في بعض كتابها الى العامة:

[. . . فثبطوا الناس على منع هؤلاء القوم ونصرتهم واجلسوا في بيوتكم فإن هؤلاء القوم لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان وفرّقوا بين جماعة الأمة وخالفوا الكتاب والسنة](١).

وجاء في بعض كتابها الى زيد بن صوحان:

[من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان، أمَّا بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فأقدِم

(١) الطبري، ج٤، ص٤٧٧.

فانصرنا على أمرنا هذا فإن لم تفعل فخذّل الناس عن عليّ][1] .

فكتب إليها :

[من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر الصديق حبيبة رسول الله ﷺ ، أما بعد: فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك وإلاَّ فأنا أول من نابذك][2] .

وقد قال زيد بن صوحان : [رحِمَ الله أم المؤمنين أُمِرَت أن تلزم بيتها وأُمِرنا أن نقاتل فتركت ما أُمِرت به وأمرتنا به وصنعت ما أُمرنا بها ونهتنا عنه][3] .

وفي المقابل فقد بعث أمير المؤمنين كتاباً إلى الكوفة يطلب منهم القدوم لنصرته في هذه الوقعة وأرسل اليهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفرومعهما الكتاب، فجاء عامة الناس إلى أبي موسى الأشعري يستشيرونه في أمر الخروج؛ لأنه قد تولى مصرهم لفترة طويلة وكان لهم مرضياً فأرادوا أن يعرفوا رأيه بعد أن التبست عليهم الأمور، فهذا الامام علي عليه السلام الذي بايعوه بالأمس وما يعرفونه عنه من الفضل والسابقة من جهة، ومن جهة ثانية هذه عائشة أم المؤمنين وزوج الرسول ﷺ ، وهذان طلحة والزبير أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) الطبري، ج٤، ص٤٧٧ .

(٢) الطبري، ج٤، ص٤٧٧ .

(٣) الطبري، ج٤، ص٤٧٧ .

كما أن للزبير أنصار في الكوفة وهنا كان خروج عائشة بالعسكر؛ قد أثار فتنة جعل الأمور تتضبب على أنظار عامة الناس الذين لا يحملون الوعي الكافي والبصيرة التي تؤهلهم لفرز وتشخيص كل حالة مضافاً إلى ذلك بُعد مركز الخلافة عن الكوفة وكون الاشخاص والأحداث غير مرئية ومسموعة بحقائقها للجميع وإنما تُنقل الأخبار والأحداث من وجهة نظر رواتها.

كان رأي أبي موسى القعود وعدم المجابهة واعتبر أنَّ هذه فتنة، وكان يوجه الناس بنفس الشعار الذي ينادي به الخارجين على الامام ولكن بصورة مُبطَّنة فقال للناس حين استشاروه:

[أما سبيل الآخرة فأن تُقيموا وأما سبيل الدنيا فأن تخرجوا وأنتم أعلم](١).

ولما بلغ محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر قوله بايناه وأغلظا له فقال:

[أما والله إن بيعة عثمان في عنقي وعنق صاحبكما الذي أرسلكما إن أردنا أن نقاتل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قَتلة عثمان إلاَّ قُتِل حيث كان](٢).

انطلق رُسُل الإمام عليه السلام إليه وأخبراهُ، فبعث بإبنه

---

(١) الطبري، ج٤، ص٤٧٧.

(٢) الطبري، ج٤، ص٤٧٨.

الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر ولما التقى الحسن عليه السلام بأبي موسى قال:

[يا أبا موسى لِـمَ تثبط الناس عنا، فوالله ما أردنا إلاَّ الاصلاح ولا مِثل أمير المؤمنين يُخاف على شيء][١].

ثم إن أبا موسى أصرَّ على تثبيط الناس ودعوتهم الى القعود عن نصرة الامام فقام زيد بن صوحان فقال:

[سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين وانفروا إليه أجمعين تُصيبوا الحق][٢].

ودعا الناس الى نصرة الامام سيحان بن صوحان وهند بن عمر وحجر بن عدي فشجعوا الناس على النفير فخرج مع الحسن (٩٠٠٠ رجل) ثم إن الأشتر التحق بالحسن إلى الكوفة وأخرج أبي موسى من القصر فانتهت بذلك ولايته على الكوفة لأنه لم يؤدِ ما يفترضه عهد البيعة من الطاعة والانقياد.

مما تقدم يتبين أن في الكوفة رجالات تمثل مركز ثقل في المجتمع الكوفي تحمل ولاءً وإخلاصاً للامام، ونلاحظ ذلك من تركيز الامام على ذلك في أكثر من مكان حيث يقول: (الكوفة فيها رجال العرب وبيوتاتهم)، ولهذه الرجالات كلمة مطاعة في مجتمعها

(١) الطبري، ج٤، ص٤٨٣.
(٢) الطبري، ج٤، ص٤٨٤.

ولمن يستطيع أن يرى الأمور بوضوح فإنه بهذه الحالة يرجع لمن يراه أهلاً للطاعة، لذا كان موقف الكوفة في معركة الجمل هو مناصرة الامام عليه السلام وترك الوالي أبي موسى ودعوته إلى القعود عن نصرة الامام.

٢ـ دور الكوفة في المواجهة بين الامام عليه السلام ومعاوية:

من أولويات السياسة الاصلاحية للامام عليه السلام كان عزل الولاة المتهمين في دينهم، كما سبق وذكرنا، وكان من الشخصيات التي شملها قرار العزل معاوية بن أبي سفيان حيث كان أسلوب الامام معه متدرج ابتداءً بالأعذار وإقامة الحجة لتلافي الحرب بين المسلمين وتجنب إراقة الدماء، فبعث له رسولاً هو جرير بن عبد الله البجلي يعلمه فيه باجماع المهاجرين والانصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وما أوقع الله بهما، ويأمره بالدخول في طاعته ويعلمه أنه من الطلقاء الذين لا يحل لهم الخلافة، وقدكان موقف معاوية أن ماطل في الجواب، واستشار عمرو بن العاص الذي أشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ويلزِم علياً دم عثمان ويقاتلهُ بهم، ففعل ذلك معاوية[١].

وضع معاوية قميص عثمان وأصابع زوجته نائلة معلقة فيه على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد وثاب الناس إليه وبكوه سنة وآل أهل الشام ألاَّ يأتوا النساء ولا يمسهم الماء للغُسُل إلاَّ من احتلام ولا يناموا

---

(١) الطبري، ج٤، ص٥٦٢.

على الفُرُش حتى يقتلوا قَتَلة عثمان[1].

كانت هذه السلوكية من معاوية تعكس رفضه للانصياع والطاعة وفتيلة للبدء بالصراع والحرب بينه وبين الامام، لذا خرج الامام فعسكر بالنخيلة وجمّع جيشاً تعداده (٩٠,٠٠٠) مقاتل.

بعد اللقاء بين الجيشين، جيش الامام عليه السلام وأكثره من أهل الكوفة، وجيش معاوية وتعداده (٨٥,٠٠٠) مقاتل وأكثره من أهل الشام[2]، أبى معاوية الانصياع والطاعة واعتبر السيف هو الفيصل بينه وبين الامام، على هذا ما كان أمام الامام عليه السلام إلاّ المقاتلة.

لو تأملنا جيش الامام عليه السلام نرى أنَّ أغلب قواده هم من أهل العراق، فهذا مالك الأشتر، شبث بن ربعي، خالد بن المعمر، معقل بن قيس، بغض النظر عن تقييم كل شخصية من هؤلاء فإن معركة صفين سارت باتجاه النصر لجيش الامام، وأوشكت ميمنة الجيش بقيادة الأشتر على الفتح لولا مكيدة عمرو بن العاص التي أنقذ بها جيش معاوية بدعوته إلى التحكيم الذي يعتبر الفتنة التي قَصمت جيش الامام وفتتهُ وفرزت الراسخين في العقيدة والولاء ممن وعى وفهم معنى الطاعة وأدرك المغزى من خطوات الامام لأنه فهم الاسلام بصورة تؤهله للتمييز، أما الفئة الأخرى التي لا تزال رخوة

---

(١) الطبري، ج٤، ص٥٦٢.

(٢) أرقام الجيش على رواية المسعودي، ٢/ ٣٨٤.

القاعدة لا يقرُّ لها قرار فقد هزَّتها هذه الفتنة وأصبحت لا تدري ما هو الحق وما هو الباطل، فظلَّت وأصبحت هي التي تقود الأمور وتفرض على الامام ما تريد، ووفق نظرها القصير المدى، وأصبحت تشكُّ في كل شيء، وكان أخطر أفراد هذه الفئة هم الأشراف الذين يمثلون رأس الهرم في قبائلهم حيث تسير كل قبيلة برأي شريفها. وبعد وصول الأمر إلى تهديد الامام بالتمرد وعدم الانقياد، رأى الامام ازاء هذا الانشقاق الخطير التسليم والتفاوض على اختيار الحكمين، فاختار معاوية داهيته عمرو بن العاص وفَرَضَ الأشعث بن قيس الكندي ومن ارتد بعد ذلك الى رأي الخوارج أبو موسى الأشعري الذي لم يقبله الامام لمواقف كثيرة منها تثبيطه لأهل الكوفة في الجمل، وقد أبى الأشعث وأصحابه إلاَّ تنصيب أبي موسى. . استطاع عمرو بن العاص خديعة أبي موسى وجعله يخلع علياً عليه السلام ويُقر بأن عثمان قُتِل مظلوماً، ولوليه المطالبة بدمه، وقد ثَبَّت عمرو بن العاص معاوية وجعله ولياً للمطالبة بدم عثمان، كان لهذه النتيجة أثراً خطيراً في صفوف الجيش حيث تباغض القوم وجعل بعضهم يتبرَّأ من بعض، فأمر الامام بالرحيل لعلمه باختلاف الكلمة وتفاوت الرأي وعدم انتظام الأمور، فسار يؤم الكوفة، ولما دخلها إنحاز (١٢,٠٠٠) من القُرَّاء فلحقوا بحروراء (قرية من قرى الكوفة) وجعلوا عليهم شبث بن ربعي التميمي وعلى صلاتهم عبد الله بن الكوّاء اليشكري من بكر بن وائل، وحمَّل هؤلاء المنحازون الذين

مثلوا فيما بعد فرقة الخوارج الامام المسؤولية عن مهزلة التحكيم وما نتج عنها بعد أن فرضتها هي عليه، فأصبحت الآن تُكفّره لأنه حكّم الرجال في كتاب الله، وتطالبه بالتوبة من ذنبه، وقد صدع هذا الانشقاق الجيش وأصاب المجتمع الكوفي بالاحباط والخذلان بعدما رأوا عاقبة اختيارهم، فبدل أن تكون صفين الجولة الفاصلة في القضاء على الجيب المتمرد واستتباب الأمور قد أولدت فئة متمردة أخرى شغلت الامام في حربها وكانت هذه الحروب المتكررة قد استهلكت طاقة المجتمع التي كان يُفترض أن تُصرَف في البناء وإقرار النظام والعدل، وكان النتيجة أن تعب الكثيرون في النهاية بعد أن فُقِد كثيرٌ منهم في سوح القتال وخلّفت المعارك آلاف الأرامل والأيتام في الكوفة خاصة، فقد كانت نتائج صفين استشهاد (٢٥,٠٠٠) من جيش الامام فيهم (٢٥ بدرياً) واستُشهد من المخلصين للامام كعمار بن ياسر وهاشم المرقال وعبد الله بن الحارث النخعي (أخو الأشتر) وإبني حذيفة بن اليمان، وإبني بديل بن ورقاء الخزاعي بالاضافة الى المخلصين الذين طحنتهم حرب الجمل، ولم يكن هناك متسع من الوقت لبناء شخصيات بديلة تسند الامام في دوره الرسالي، فكان يخسر المخلصين وتبقى رؤوس النفاق التي كانت مختبئة تخفي رؤوسها عندما كان صوت الحق عالياً بكثرة الاتباع والموالين المخلصين، فلما قُتِل أكثرهم ظهر أصحاب النفاق على المسرح وبدأوا يمارسون دورهم في الإضلال ومحاولة الاستدارة

بسفينة الأحداث إلى جادة الانحراف مرة أخرى، فكان للأشعث بن قيس، وهو الذي يحمل الضغن لأن الامام عليه السلام عزله من ولاية اذربيجان وأرمينية، وقد كان عاملاً لعثمان عليها، فكان له دور كبير في إجبار الامام عليه السلام على التحكيم مضافاً إلى أن قسماً من الجيش هو من جيش البصرة الذي قاتَل الإمام في معركة الجمل.

النقطة الثانية أن الحروب المتتالية قد أنهكت جيش الامام مادياً ومعنوياً، وذلك لأن الجيش يقاتل جيشاً مسلماً، وقد لعبت الخُدع والمكائد دورها في تحطيم الروح المعنوية وبث الشقاق والفرقة في الجيش، ومن المعلوم أن الانتصار العسكري وتحقيق الهدف يعتبر عامل قوة عزيمة للجيش ورفع للروح المعنوية بخلاف التخاذل والمكائد والهزيمة، فإنها عامل إحباط وتثبيط للروح المعنوية. وفي أغلب الأحيان يحاول الطرف المخدوع أن يُلقي باللائمة على الأطراف التي لا تتفق معه في الرأي، فحين أجبر الأشعث الإمام على قبول التحكيم وفرض شخص أبي موسى وما نتج عن ذلك مما يُعرَف بالاصطلاح المعاصر بالخسارة السياسية، فإن الخوارج ومن تبعهم لم يُلقُوا باللائمة على من فرض التحكيم بل حمَّلوا نتائج الأمور على عاتق الامام عليه السلام، وكان هذا الأمر عاملاً في إثارة الفتنة وتفتيت الجيش وانشقاقه، وفقدان روح الطاعة والولاء للقائد، فأضيفَ فتقاً جديداً ألا وهو؛ الخوارج الذين شكلوا فرقة إمتدت لفترة زمنية طويلة اتخذت لنفسها أفكار ومبادىء غريبة عن الدين وأضلَّت معها شريحة

كبيرة من مجتمع الكوفة لما تمتاز به من صلاح الظاهر، ولكنها تحمل ذهنية سطحيَّة لا تستطيع إستيعاب المواقف وتحليلها واستقراء بواطن النفوس والخبرة بمعادن الناس، فضلَّت وظلمت وجعلت خيرة القوم في كفة واحدة مع أشد الناس ضلالاً وانحرافاً.

ومن هنا يظهر أن الفتن التي عاصرها الامام عليه السلام في فترة حكمه وعايشها معه المجتمع كانت أكبر من أن تصمد أمامها جميع النفوس، سيما أنها لم تجد الوقت الكافي والظرف المناسب لكي تعي وتستوعب التعاليم الاسلامية استيعاباً كافياً يؤهلها للتمحيص والفرز بين الخطأ والصواب، والدهاء والنزاهة والمصلحة الشخصية والمصلحة العامة والايثار والإثرة. لذا فإنَّ النفوس التي تحارب من أجل الغنيمة قد أصيبت بالاحباط؛ حين نهاهم الامام عن أخذ أموال أعدائهم من جند الشام، وعلى هذا فإن النفس اللاهثة وراء المال والدنيا لا تجد ما يُغريها في اتباع علي عليه السلام لأنها لا تمتلك قوة العقيدة التي ترفعها الى التضحية والاستبسال، مضافاً إلى ذلك أن روح العصبية القبلية التي أكدتها سياسة من سبق قد ثارت ضد سياسة الامام في التسوية بالعطاء واعتبرت ذلك مهانة لها، وخلَّف ذلك روح السخط وعدم الانقياد وتجسَّد ذلك السلوك في قسم من شخصيات الكوفة الممثلة في الأشراف الذين يعتبرون العناصر المؤثرة بقوة في مجتمعاتها، وكان لأمثال هؤلاء دور خطير على المجتمع لكون صوتهم مسموع من قِبَل شريحة لا يُستهان بها من المجتمع متمثلة

بطبقة البسطاء والسُذَّج، وقد تجسَّد هذا الدور في شخصية الأشعث بن قيس في معركة صفين حيث فرض على الامام التحكيم ومالت معه اليمانية[١]، وفرض عليه شخصية أبي موسى الأشعري وتبعه في ذلك فئة كبيرة من الجند جعلت الامام يرضخ لما تريد حفاظاً على وحدة الصف.

الشريحة الثانية من أهل الكوفة هي الخوارج؛ التي اعتزلت وكفَّرت الامام لأنه أخطأ في التحكيم، وعليه أن يتوب، وقد حاول الامام أن يناظرها لإقامة الحجَّة عليها علَّها تعود ولكنها أبت، وبدأت بإشاعة الفساد، فقتلوا عبد الله بن خباب وامرأته الحامل، وقتلوا رسول عليّ عليه السلام الحارث بن مُرة العبدي الذي أرسله لمناظرتهم، وقتلوا ثلاثة من نساء طيء. لو أردنا تحليل سلوكية هؤلاء الخوارج يمكن لنا تلمُّس الازدواجية في سلوكها، فحيث أنها تتقي الله في الأمور الصغيرة وتدَّعي أنَّ غايتها رضوان الله والجنة، من جانب ثاني لا تُراعي حرمة النفوس المحرَّمة من الرجال والنساء، لا لشيء، إلاَّ الولاء لعلي عليه السلام، كأنما قسمت هذه الشريحة الدين إلى قسمين، فأخذوا القسم الذي يتعلق بالشعائر الظاهرية كإقامة الصلاة وقراءة القرآن، والقسم الذي يتعلق بطاعة الإمام، وحقوق من نصروه رفضوها وأصرّوا على تكفيره ووجوب قتله هو ومن والاه.

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٨٢.

ولا نرى ذلك ناتجاً إلاَّ عن مزيج من الجهل وعدم الوعي الكافي لمفاهيم الدين، فأخذوه قشوراً ورفضوا الجذور والمفاهيم العميقة فيه مع عصبية متأصلة في النفوس، ولكن حُوّل اتجاهها من التعصب للقبيلة، إلى التعصب لفكرة الخوارج والاستماتة من أجلها، وللتخلص من هاجس الاحباط والتخاذل الناتج عن روح الهزيمة التي طبعت النفوس بعد خدعة التحكيم، بدأوا بالبحث عن مشجب يعلقون عليه فشلهم وسوء اختيارهم ليبرروا فعلتهم في إجبار الامام عليه السلام على التحكيم، فألقوا باللائمة عليه، بل وتلبسوا بهذه الفكرة فامتلأت نفوسهم حقداً على الامام فبدأوا يسفكون دماء كل من يناصره ويُدافع عنه، وازاء محاولات الإعذار والحوار لإزالة هذا الضباب عن العقول لم يجد عليه السلام آذاناً صاغية وأفهاماً واعية باحثة عن الحق لتعين أنفسها على الوصول إليه، بل وجد رجالاً مصرّين على قتالهِ وتكفيرهِ، وازاء ذلك دعاهُ المسلمون إلى قتالهم أولاً ثم التوجه إلى معاوية، فقاتلهم في النهروان ورجع قسم منهم وحارب (٢٧٠٠) من مجموع (٤٠٠٠) فانتصر عليهم وذلك في سنة (٣٧هـ).

في فترة انشغال الامام في إطفاء نار فتنة الخوارج ومخلفات التحكيم كان معاوية يخطط للاستيلاء على مصر، وقد نجح في ذلك، فأضيفَ عبءٌ جديد على كاهل السلطة المركزية وعامل جديد في تثبيط الروح المعنوية. لم يكتفِ معاوية لتدعيم ملكه بذلك بل بدأ

بغارات يحاول فيها زعزعة الأمن وترويع الناس، وقد كان للعراق نصيباً من هذه الغارات حيث بعث معاوية في سنة (٣٩هـ) جيوشه إلى أطراف الدولة فبعث النعمان بن بشير في ألفي رجل الى عين التمر وسفيان بن عوف في ستة آلاف إلى هيت ثم الانبار والمدائن وقال له:

[إني باعثك بجيش كثيف ذي أداة وجلادة فالزم جانب الفرات حتى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغِر عليهم وإلاَّ فامض حتى تفد على الانبار فإن لم تجد احداً فامضِ حتى توغل المدائن، إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق تُرعب قلوبهم وتفرح كل من له هوى فينا منهم وتدعوا إلينا كل من خاف الدوائر فاقتل من لقيته ممن هو ليس على مثل رأيك واضرب كل ما مررت به من القرى واحرب الأموال فان حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب][١].

كذلك بعث معاوية بغارات أخرى على اليمن والحجاز لتدعيم ملكه وترويع الناس وزعزعة سلطة الامام عليه السلام.

على ضوء هذه الأحداث بدأت قوة معاوية تتعاظم في النفوس لدرجة أن عمال الامام على الأمصار يفرون من غارات جيش معاوية كما في عبيد الله بن عباس؛ عامل الامام عليه السلام على اليمن، إذ فرَّ من

(١) شرح النهج، ج٢، ص٨٥.

بسر بن أرطأة، فكيف بعامة الناس الذين لم يكونوا بالمؤهلات والوعي الكافي، مضافاً إلى أن الحروب والفتن قد أنهكتهم، فبدأوا بالبحث عن الأمان ودولة بلا حروب، لذا بدأوا لا يستجيبون لنداءات الامام بالخروج لقتال معاوية وعزا الخوارج الفتنة التي وصلت لها الدولة الى القائمين، وعليه فإن الخلاص منوط بقتل علي عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص فكان اتفاق الخوارج الثلاث على ذلك، وكان الامام عليه السلام من نصيب ابن ملجم الذي نجح هو الوحيد في مهمته فكان استشهاد الامام علي عليه السلام في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان وباءت المحاولتان الأخيرتان بالفشل.

سياسة معاوية في تدعيم سلطانه:

لو درسنا أسلوب معاوية في تدعيم سلطانه نرى أنه استهدف الجوانب التالية:

١ ـ الجانب النفسي: وذلك بإشاعة روح التخاذل والانهزامية في صفوف جيش الامام علي عليه السلام وبثّ الخوف والذعر في الأطراف كما لحظنا ذلك من خلال الغارات التي كان يبثها على الأطراف قاصداً بها القتل والسلب والنهب ومحاولة اقتطاع أجزاء متعددة من الدولة كمصر والبصرة واليمن والحجاز، ووصل عامل الخوف في النفوس إلى درجة هروب ولاة الامام عليه السلام أمام الجيش

المتقدم بعد نجاح جيش معاوية في قتل محمد بن أبي بكر والاستيلاء على مصر.

العامل الثاني في الاختراق النفسي؛ هو الاغراء بالمال والسلطان، لذا فإنَّ الكثير من ضعاف النفوس وطلاَّب الدنيا كانوا يتركون علياً عليه السلام ويلتحقون بمعاوية طمعاً في دنياه.

٢ ـ الجانب الفكري: بتشويه الحقائق وتزييفها وتشويه صورة وسمعة الرجال المخلصين وإضلال الأمة بنشر الأفكار الباطلة وتلبيسها بلبوس الحق وذلك برفع معاوية لشعار المطالبة بالثأر لدم عثمان، ولنا هنا أن نتساءل هل اقتصَّ معاوية من قتلة عثمان؟ وهل أقام الحدود ممن قتله فقط أم أنه حارب شيعة عليّ وحملة مبادئه لأن تلك المبادىء تفضح معاوية وترفض له أن يتبوَّأ ما ليس له لذلك فقد عمل جاهداً على طمس فضائل الامام وإلصاق التهم الباطلة بشخصيته، وقدنجحت سياسة الحرب الفكرية هذه في عدة مراحل بالنسبة لضعاف العقول والبعيدين عن الفهم الواعي والمتكامل للرسالة بالإنسياق وراء كثير من الدعوات، وهذا يُفسر لنا لماذا وجد الخوارج لهم قاعدة؟ ولماذا أوجد أصحاب الجمل لهم أنصار؟ ولماذا حاربت أهل خِرْبتا (في مصر) محمد بن أبي بكر، فهناك من يُصدّق لبساطته أو لعدم معرفته بحقائق الأمور كثيراً من المُدعيات الباطلة.

٣ ـ الجانب العسكري : كانت خطة معاوية في التهام ممتلكات الدولة التي يقودها الامام عليه السلام ناجحة، فبدأ بمصر فاقتطع بذلك جزءاً مهماً من الدولة وصرف نظر الامام عن محاربته إلى توجيه الجهود لاستعادتها، فنجح بذلك في إضعاف جبهة الامام وتفتيت جهودها، كما أن غارات معاوية أضعفت قوة سلطان الدولة، وما لذلك من تأثير في فقدان الأمن وبالتالي ضعف الدولة لعدم تمكنها من بسط نفوذها وحماية أطرافها.

٤ ـ إضعاف الجانب القيادي، وذلك بالإيقاع واغتيال الأقوياء والمخلصين الذين يعتبرون الإسناد والدعامة التي يعتمد عليها الامام عليه السلام في حكمه، لذا فقد تربَّص معاوية للأشتر مثلاً باعتباره من الثقاة الذين يعتمد عليهم الامام عليه السلام فسَمَّه وهو في طريقه الى مصر، كما أشاع أن قيس بن سعد والي مصر قد تواطأ مع معاوية كمحاولة لعزل الإمام عن جميع المخلصين له، وكحصيلة حاصلة يتبيَّن أنَّ مجريات الأمور والحروب والفتن أصبحت عقبات في طريق بناء الامام للأمة، بل العكس فإن فتنة الشام والجمل والخوارج كانت عامل هدم في النفوس خرج منها أهل الكوفة منهكين من الحروب يحملون روحاً ملئى بالاحباط لأنهم فشلوا في إقصاء أحد الولاة الذي يعتبر من مخلفات زمن الخليفة عثمان المتمثل في شخص معاوية،

بل ان النتيجة هي أن الغلبة والقوة الى جانبه وكانت الكارثة بمقتل الامام وبقاء معاوية.

الكوفة مع الامام الحسن عليه السلام:

برغم الحروب والفتن استطاع الامام من بناء قاعدة موالية على الأخص في الكوفة دفعها ولاءَها إلى مبايعة الإمام الحسن عليه السلام بعد وفاة أبيه، فكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة[1] وبايعه الناس حيث بايعه في الكوفة (٤٢,٠٠٠) على السمع والطاعة، وبايعته البصرة والمدائن وجميع العراق، وفارس على يد زياد بن أبيه والحجاز واليمن على يد جاريه بن قدامه[2]، وحين تمت له البيعة أخذ في إحكام الدولة ورتَّب العمال وزاد في عطاء الجيش (١٠٪)وكانت هذه الخطة وسيلة لكسب ود الجيش كما قال ابن كثير:

[وأحبوه أشدَّ من حبهم لأبيه][3]، أمَّا من تخلَّف عن بيعة الامام فهو معاوية في الشام، وعمرو بن العاص في مصر، كان رد فعل معاوية ازاء بيعة الحسن أن بدأ بالتخطيط للمجابهة، فحيث قد ضلل عقول أتباعه باتهام الامام علي عليه السلام بقتل عثمان ومحاربته

---

(١) الطبري، ج٥، ص١٥٨.

(٢) الامام الحسن ـ القرشي، ج٢، ص٣٨.

(٣) الامام الحسن ـ القرشي، ج٢، ص٤١.

تحت ذريعة الثأر لعثمان، فماذا ستكون ذريعته ازاء الامام الحسن عليه السلام؟ وكان من المدافعين عن عثمان، لذا جمع معاوية خُلَّص أتباعه لمشاورتهم في الموقف فقرروا وضع خطة تقوم على:

١ ـ نشر الجواسيس في الأمصار التابعة للحسن عليه السلام لمعرفة تحركاته وتوجهات المجتمع ومدى ارتباطه واخلاصه له ونشر الشائعات والأراجيف التي تبث الخوف والذعر وتحطم المعنويات من خلال تعظيم قوة معاوية وجيشه.

٢ ـ مراسلة رؤساء القبائل والوجوه البارزة في المجتمع وإغرائهم بالمال والمناصب ليكونوا الى جانب معاوية ويخذلوا الحسن عليه السلام، ومن المؤسف أن في الوجوه من ذوي النفوس الضعيفة اللاهثة وراء المال والوجاهة حتى ولو على حساب الدين والقيم، فمع معاوية كانت الدنيا وزينتها، ومع آل البيت عليهم السلام كان الدين والمبدأ، وقد عانى الامام علي عليه السلام وابنه الحسن عليه السلام من هذه الثغرة الكبيرة لأن شراء الوجوه يعني شراء شريحة من الناس تتبع هذه الوجوه (المتمثلة بالأشراف) مدفوعة بروح العصبية القبلية التي أكدتها الأحداث والفتن والانحرافات... كانت سياسة الحسن عليه السلام مع معاوية تقوم على إقامة الحجة والأعذار ثم بعد استنفاذ الوسائل اللجوء الى الأساليب الأخرى بعد قيام الحجة، فكانت دعوته عليه السلام له بالدخول فيما دخل فيه المسلمون فكان

الرفض هو الرد، ولجأ إلى أسلوب المماطلة والمراوغة، وأخيراً التهديد، وبادر معاوية إلى إعلان الحرب من أجل كسب الموقف ولعدة أسباب:

١ ـ من خلال مراسلاته مع رؤساء القبائل وقادة الجيش تبين له أن فيهم من ضِعاف النفوس الذين يُشتَروْنَ بالمال والمناصب وتلمس عدم إخلاصهم للامام من خلال إجابتهم سراً الى خيانة الحسن عليه السلام.

٢ ـ تفكك الجيش وتفلله وعدم طاعة الامام وإيثاره حياة السلم والدّعة، وهناك من لا يرى الولاء للحسن عليه السلام أصلاً كالخوارج.

كانت مبادرة معاوية إلى الحرب وتوجهه الى قتال الحسن في جيش تعداده (٦٠,٠٠٠)[١] مقاتل الأثر في بث الرعب والخوف في النفوس، فكانت النتيجة التخاذل حين دعاهم الحسن عليه السلام للخروج الى النخيلة الى أن بادر عُديّ بن حاتم وقيس بن سعد ومعقل بن قيس في الخروج وخرج معهم (١٤٠,٠٠٠) مقاتل. ولو تلمسنا الأصناف التي خرجت في هذا الجيش من خلال وصف الشيخ المفيد(ره):

[واستنفر الناس للجهاد فتثاقلوا عنه ثم خفوا وخفّ معه أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه وبعضهم محكمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع بالغنائم، وبعضهم

(١) القرشي ـ الامام الحسن.

شُكَّاك، وبعضهم أصحاب عصبيَّة اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين][1].

وعليه فالجيش يتكون من:

١ ـ شيعة مخلصين، وهؤلاء قلَّة تتصف بالولاء لآل البيت عليهم السلام وبأحقيتهم في تولي الأمور وطاعتهم مفروضة على جميع المسلمين.

٢ ـ خوارج كانوا يرون قتال معاوية والحسن عليه السلام، لذا انضموا إلى جيش الحسن ليقاتلوا معاوية وبعد ذلك يمكن لهم التخلّص من الحسن باغتياله كما فعلوا من قبل بأبيه.

٣ ـ الخارجين طمعاً في الغنيمة وليس لهم عقيدة أو قضية يحاربون من أجلها.

٤ ـ فئة قد أَثرت عليها أفكار الخوارج ودعايات معاوية فأصبحت كالنبتة الرخوة التي تهزها أي ريح، وهؤلاء يكون انقلابهم سريع جداً لأي موقف بسيط لأن نفوسهم ملأى بالشك وعدم الثبات.

٥ ـ أكثر عناصر الجيش من أصحاب العصبية الذين يتبعون رؤسائهم والخطر كله يكمن في هؤلاء فحيث أن الرؤساء قد اشتراهم

---

(١) الارشاد ـ الشيخ المفيد، ص١٦٩.

معاوية بالرشوة فكيف يُرجى من هؤلاء انقياداً وطاعة للامام.

ومما تقدَّم يتبين أن (٤/ ٥) الجيش لا يُرجى منه نصر على الأعداء لأنه لا يحمل إيماناً راسخاً وولاءً قوياً لمن يقاتل معه، وله استعداد عالٍ للنكوص والتراجع، وكان هذا ما وقع حين هرب قائد الجيش ابن عم الامام عليه السلام؛ عبيد الله بن العباس مع (٨٠٠٠) من الجيش في غلس الليل وكانت الهزيمة التي قادت بالنتيجة الى الصُلح مع معاوية بعد أن تبلبل الجيش إثر هروب قائده وأُشيع فيه أن الحسن قد صالح، فهجم أحد الخوارج على الامام وطعنه في فخذه ونهبوا رحله فأدرك الحسن عليه السلام أنه على رأس جيش لديه الاستعداد لنهبه وتكفيره واغتياله بل وتسليمه إلى معاوية أسيراً فتُهدَر بذلك كرامته.

ومن هنا يتبيَّن أن الهزيمة العسكرية التي لحقت بالجيش كانت نتيجة لخيانة قائد الجيش عبيد الله بن عباس ونجاح الحرب النفسية التي قام بها الجواسيس في بث الذعر في نفوس الجيش وإشاعة فكرة مصالحة الحسن لمعاوية. ولنا هنا أن نتساءل هل أن عبيد الله بن العباس هو من أهل الكوفة حتى تُعَد خيانته وصمة عار في جبين الكوفة يجعلها موسومةً بالغدر والخيانة، أم أنه ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولكن هل تعصم هذه الصلة صاحبها عن التهاوي والتخاذل؟

دور أهل الكوفة في محنة الحسن عليه السلام:

كانت الكوفة بمثابة السور الذي لم يُحكَم تشييد بنائه وعُرّض

بنفس الوقت لأقوى الضربات، فكيف لهذا السور الرخو البناء أن يحمي ما وراءه ولا ينهار؟ هذا إذا علمنا أن الأمور تجري بقانون الأسباب والمسببات لا بالعوامل الغيبية والاعجازية، وهذا يعني أن النصر له عوامل وأسباب إن هُيّأت تم، وإلاّ فلا، لأن منطق المعجزة ليس هو الذي يرسم عواقب الأمور، فكيف نطلب من أهل هذا المصر الذين كانوا المحور الذي تدور حوله الفتن والمحن ولم يُعطوا الوقت الكافي لاستيعاب أسباب القوة والحصانة ضدها، فكانت الحروب تتوالى عليه مصحوبة بأساليب الحرب النفسية التي جعلت منه يتهاوى في نهاية المطاف لتوالي الضربات الموجعة. ولو أردنا استقراء أسباب الهزيمة نجدها تتمحور حول خيانة قائد الجيش عبيد الله بن العباس وخيانة رؤساء القبائل الذين أفلح معاوية في إغرائهم بالمال والمناصب، فأداروا بدفة المعركة إلى صالح معاوية. ومن هنا يتبين أن المجتمع العام في الكوفة وقع ضحية خيانة الاشراف وتحمّل لوحدة تبعات أعمالهم، فها هو التأريخ يصم مجتمعاً كاملاً بالغدر دون الاشارة إلى المسؤول الحقيقي وتكاد تكون هذه صفة عامة في كل مجتمع ففيه الصالح وفيها ضعاف النفوس الذين يجرون مجتمعاتهم الى مطبات تبقى نقاط سوداء في تأريخها.

سياسة معاوية بعد صُلح الحسن عليه السلام:

بعد الصلح بدأ معاوية بعدة إجراءات أولها نقض العهد الذي

أعطاه للحسن عليه السلام من الأمان له ولشيعته، فكان البلاء قد حلَّ بالموالين لعلي عليه السلام لملاحقة معاوية إياهم، فكان أول إجراء أن كتب إلى جميع عماله: [أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته][1]، فقام الخطباء يلعنون علياً عليه السلام على المنابر ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته.

وقد كتب معاوية إلى عماله نسخة واحدة الى جميع البلدان:

[انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يُحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه][2]، وشفع ذلك بنسخة أخرى: [من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره][3].

من المعلوم أن أغلب الموالين لعلي عليه السلام هم أهل العراق بصورة عامة والكوفة بصورة خاصة، لذا فقد كانت الكوفة عرضة لسياسة استهدفت بنيتها الفكرية بتشويه صورة مَثَلها الأعلى وذلك بالأمر بسبّهِ على المنابر. لقد اعتبر معاوية من الأوليات التي عليه أن يعالجها هو إخضاع أهل العراق بعد أن عانى منهم الكثير بسبب سيرهم خلف الامام علي عليه السلام لحربه، وكانت هناك شخصيات معبَّئة بالمفاهيم الاسلامية الصحيحة، والتي تشكل ثقلاً اجتماعياً

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد، ١١/ ٤٤.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد، ١١/ ٤٤.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد، ١١/ ٤٥.

ملحوظاً. كانت سياسة معاوية تتركز على ثلاث محاور:

١ ـ استمالة بعض أشرافها والعناصر القوية والمؤثرة فيها وإغراؤها بالأموال والمناصب (كالأشعث بن قيس الكندي) وبالتالي يكون هؤلاء الأشراف الذراع الأيمن للسلطة الأموية في استتباب الأمن واستقرار الأمور لصالحها، وهذا ما جرى فعلاً في الأحداث اللاحقة.

٢ ـ اسلوب العنف والارهاب والبطش بمن ليس هناك امل في استجابتهم للدولة الأموية بسبب صدق الايمان والاخلاص للرسالة، وهذا ما حدث لكثير من كبار الموالين للامام علي عليه السلام كحجر بن عدي وأصحابه الذين قُتِلوا صبراً. وقد استعمل معاوية أشد العمال قسوة ووحشية عليهم مثل زياد بن أبيه الذي كان يأخذ الناس على الظن والتهمة ويوغل في الدماء والجريمة لأتفه سبب.

٣ ـ إيجاد نظام الشرطة والشرطة السرية (العيون) والعرفاء الذين كان ارتباطهم بالدولة حيث تتلقى هذه الأجهزة أجورها من السلطة مباشرة منها وتنفذ أوامرها بدون تردد أو نقاش، لذا فهي نفوس مشتراة على استعداد لفعل أي شيء وتنفيذ أي أمر من السلطة[١].

ومن جانب آخر كانت هناك الحرب الاقتصادية، فقد نقل معاوية بيت المال من الكوفة الى دمشق وزاد في جرايات أهل الشام

---

(١) معالم الانحراف ـ محمد نعمة السماوي.

وحطَّ من جرايات أهل العراق، وكان يسير وفق المبدأ الذي أعلنه بقوله: [الأرض لله وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركته كان جائزاً لي][1]. كان تقليل عطاء أهل الكوفة نوعاً من العقاب لولائها لعلي عليه السلام وأسلوباً من أساليب تركيعها وتخضيعها.

لقد تعرض مجتمع الكوفة لحرب نفسية كان الهدف منها سلب ولائه وهويته الرسالية وتحويله إلى مجتمع من الرعاع ليس له غاية إلاّ كسب العيش وصرفه عن اهتماماته الاسلامية، وقد كانت خيبة الأمل التي أُصيب بها هذا المجتمع بفقدانه لقادته الذين يمثلون المُثُل العليا له قد أحدثت اهتزازاً في محتواه الداخلي فأصبح يشكك في كل شيء، بل انعكس ذلك على سلوكه فأصبح يتسم بالازدواجية والتلوّن بعد أن رأوا أن الغلبة لأبعد الناس عن الاسلام. وقد بلغت هذه السلوكية أعلى مستوى لها في تعامل أهل الكوفة مع الحسين عليه السلام من خلال موقفهم المتذبذب بين نصرة الامام ودعوته لاكمال شوط المسيرة الاسلامية، وبين التخاذل عند ظهور الارهاب والقسوة الأموية.

لقد كان للولاة الذين عيَّنهم معاوية على الكوفة دور بارز في تنفيذ المخطط المراد منه إخضاع أهل الكوفة وإيصالهم الى حالة فقدان الشخصية وعدم القدرة على الثبات والتقلب والتلون، وذلك

---

(١) مروج الذهب، المسعودي، ٣/ ٥٢.

نتيجة لسياسة الارهاب والوحشية التي مارسها هؤلاء الولاة، وقد كان زياد بن أبيه الوالي المُبرز الذي أسهم في توطيد اركان الحكم لبني أمية وتخضيع أهل الكوفة وسلبهم هويتهم الرسالية التي رباها فيهم الأئمة عليهم السلام ابتداءً من أمير المؤمنين خلال فترة حكمه واتخاذه للكوفة عاصمة له ثم ولده الإمام الحسن عليه السلام . ولا بد لنا كي نفهم سر التحول في مواقف المجتمع الكوفي وانقلابه، من دراسة ممارسات زياد بن أبيه باعتبار الدور الكبير الذي لعبه في زرع الخوف في النفوس الذي بدوره صبغ الكوفيين بازدواجية تتجلى في مواقفهم الخاذلة لأهل البيت برغم الولاء الذي تنطوي عليه نفوسهم.

سياسة والي معاوية زياد بن أبيه:

يُعد زياد بن أبيه من أبرز الولاة الذي ساهمت سياسته في بلورة الشخصية الكوفية وصياغتها في إطار التردد والتراجع وإبطان عقيدة وسلوك ما يخالفها؛ نظراً لما اتسمت به من القسوة والوحشية والارهاب والتنكيل بالمخالفين؛ هذا إذا علمنا أنه عارف بحال أهل الكوفة وما يبطنه أكثرهم من الموالاة لعلي عليه السلام لأنه كان منهم.

تذكر مصادر التأريخ عن هوية زياد: (أنَّ أمه سمية قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندي للحارث بن كلدة وكان طبيباً يعالجه، فولدت له على فراشه نافعاً ثم ولدت أبا بكره فأنكر لونه وقيل له: إن جاريتك بغيّ! فانتفى من أبي بكره ومن نافع، وزوجها عبيداً؛ عبداً لابنته،

فولدت على فراشه زياداً. وكانت البغايا في الجاهلية لهنَّ رايات يُعْرَفنَ بها)[1].

إذن فزياد ينحدر من أم بغي وأب عبد، هذا النسب الوضيع خلق عنده عقدة نتيجة دناءة أصله وشعوره بالنقص، حاول أن يمحو آثارها بالرفعة في نواحي أخرى، وقد أدرك معاوية نقطة الضعف هذه واستطاع استدراجه منها حين تحصَّن في قلعة بفارس عندما كان والياً لأمير المؤمنين علي عليه السلام على فارس فاستماله معاوية واستصفى وده باستلحاقه بأبيه (أبي سفيان)، فرضي زياد أن يكون ابن زنا لأبي سفيان على أن يكون إبناً لعبد، ولعلَّ هذا يعكس لنا رواسب الجاهلية التي لم تستأصل من النفوس وبقيت آثارها إلى هذا الزمان.

واجه هذا الاستلحاق الانكار والرفض من قبل المسلمين الصحابة والتابعين، بل وحتى من قِبَل أبو بكرة أخو زياد نظراً لمخالفة هذا الاستلحاق للشريعة التي تنص على أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء في الحديث الشريف[2].

ولعلَّ رفض المسلمين هذا الاستلحاق وعلم زياد بذلك لم يستطع أن يزيل آثار تلك العقدة (دناءة الأصل) من نفسية زياد، فاندفع بوحشية وقسوة لينفّس عن هذا الحقد الكامن في أعماقه، بالاضافة

---

(١) العقد الفريد، ج٥، ص٦.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١٢، ص٤٤.

الى تحول في ولائه من موالاة الامام علي عليه السلام إلى الاخلاص الى معاوية بعد هذا الاستلحاق فاندفع لتثبيت وتدعيم سلطان معاوية بكل وسائل التنكيل والارهاب.

سياسة زياد في الكوفة:

لقد حكم زياد العراق (ولايتي البصرة والكوفة) بالحديد والنار، فكان يتبع المناوئين لحكم معاوية من الشيعة لأنه عارفٌ بهم حيث كان منهم أيام الامام علي عليه السلام. يقول ابن الأعثم (المتوفي سنة ٣١٤هـ):

(وجعل زياد يتتبع شيعة علي بن أبي طالب فيقتلهم تحت كل حجَر ومَدر حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، وجعل يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم، وجعل أيضاً يغري بهم معاوية، فقتل منهم معاوية جماعة، وفيمن قتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه، وبلغ ذلك الحسن بن علي فقال: اللهم خذ لنا ولشيعتنا من زياد بن أبيه، وأرنا فيه نكالاً عاجلاً)[١].

ويقول ابن أبي الحديد:

(فكان زياد يتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي

---

(١) كتاب الفتوح لابن الاعثم، ٤/ ٢٠٣.

والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرَّدهم عن العراق فلم يبق معروف منهم)[١].

ويروي الطبري بعضاً من إرهاب زياد وذلك:

(أن زياداً لما مات المغيرة وأُنيطت به ولاية الكوفة جاء إلى الكوفة وصعد المنبر فخطب في الناس فحُصِبَ وهو على المنبر. يقول الطبري: فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: ليأخذ كل رجلٍ منكم جليسه ولا يقولنَّ لا ادري من جليسي. ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون بالله ما مِنَّا من حصبك فمن حلف خلاَّه ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار الى ثلاثين، ويقال: بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان)[٢].

ومن أفظع جرائم زياد إغراء معاوية بقتل الصحابي الجليل حجر بن عدي رحمه الله وإثني عشر شخصاً من أصحابه، وتسبب زياد في قتل الصحابي الجليل عمرو بن الحمق الخزاعي(ره) حيث طارده فخرج إلى الموصل متخفياً فقبض عليه عامل الأمويين على الموصل وضرب عنقه ونصب رأسه على رمح وطِيفَ به فكان أول رأس طِيفَ به في الاسلام.

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١/ ٤٤.

(٢) الطبري، حوادث سنة (٥٠هـ).

وكان لهاتين الجريمتين وقعاً كبيراً على نفوس المسلمين وسبباً لإثارة سخطهم على معاوية وزياد، لذا كتب الامام الحسن عليه السلام إلى معاوية كتاباً يؤنّبه فيها على هاتين الجريمتين:

«ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة، جرأة على الله واستخفافاً بعهده، أولستَ بقاتلِ عمر بن الحمق الذي أخلفت وأبلت وجهه العبادة)[١].

وبالاضافة إلى ذلك فان سياسة زياد لم تقم على قانون إسلامي أو حتى على العدل، بل انه كان يقتل البريء بالمتهم كما جاء في خطبته:

(وإني أقسم بالله لآخذنَّ الوليّ بالولي والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح في نفسه بالسقيم النَطِف حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد)[٢].

وحقق زياد تهديداته وذلك حين:

(استعمل زياد على شُرطته عبد الله بن حصين، وأجّل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر، فكان يؤخّر العشاء

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ١/ ١٨١، مطبعة مصطفى البابي.

(٢) أنساب الأشراف ٥/ ٢١٦.

الآخرة ثم يصلّي فيأمُر رجلاً أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يُرتّل القرآن، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة، ثم يأمر صاحب شُرطته بالخروج، فيخرج فلا يرى إنساناً إلاّ قتله فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتى به زياد فقال: هل سمعتَ النداء؟

فقال: لا والله! قَدِمتُ بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها الى موضع وأقمت لأُصبح ولا عِلمَ لي بما كان في الأمير.

فقال: أظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأمة. ثم أمر به فضُربت عنقه، وكان زياد أول من شدّد أمر السلطان، وأكّد الـمُلكَ لمعاوية وجرَّد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً)[1].

ووراء كل هذه الممارسات فإنَّ زياد كان ينفذ وبدقة أوامر معاوية في كتابه الذي بثَّه في الأمصار:

(أن برئت الذمة، من روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته)[2] ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان:

(انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحب عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطو عطاءه ورزقه) وشفع ذلك بنسخة أخرى: (من

(١) الكامل، ج٢، ص٤٧٤.

(٢) شرح النهج ١١/ ٤٤.

اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به وهدّموا داره)[1].

ويذكر ابن أبي الحديد: (فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر في أي مكان منه بالعراق ولا سيما بالكوفة حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته، فيُلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الايمان الغليظة ليكتمنَّ عليه)[2].

مما تقدَّم نرى أن زياداً قد وَطَّدَ السلطان لمعاوية على العراق وبالذات الكوفة؛ التي كانت تضمر الولاء للامام علي عليه السلام وسياسته بعد أن استقت الاسلام الحقيقي في منهجه وسلوكه، ومن خلال الطليعة التي قام باعدادها وتوجيهها، فزرع زياد الخوف في النفوس وكمم الأفواه وقتل الإرادة بالارهاب والتنكيل وسفك الدماء، وذلك بقتل الرافضين لسياسته والواعين لتغيير الانحراف، وكانت النتيجة غياب القادة القادرين على توجيه المجتمع وسوقه لمجابهة بني أمية وسياستهم فأصبح مشلولاً لا يقوى على التحرك بأي اتجاه يؤدي للتغيير وكانت النتيجة الصمت وإضمار عقيدة الولاء لأهل البيت ورفض سياسات بني أمية وإظهار الخضوع والاستكانة لارادة بني أمية وولاتهم، فأصبح مجتمع الكوفة يعيش حالة من

---

(١) شرح النهج ١١/ ٤٥.
(٢) شرح النهج ١١/ ٤٥.

الازدواجية بين الباطن والظاهر وبنفس الوقت حالة الترقب والانتظار لأي ثائر أو خارج على بني أمية للانضمام تحت لوائه والسعي للخروج من قبضتهم.

رجالات الكوفة:

١ ـ حجر بن عدي الكندي:

هو أبي عبد الرحمن بن عدي بن الحرث ابن عمرو بن حجر الملقب بآكل المرار [ملك الكنديين] ويُعرَف بحجر الخير. وقيل هو ابن عدي بن معاوية بن جبله بن عدي بن ربيعة بن معاوية الاكرمين من كندة[1] ومن ذؤابتها العليا.

وفد هو وأخوه هاني بن عدي على النبي ﷺ وقد جاء في الاستيعاب وأسد الغابة[2] ما يلي: (كان حجر من فضلاء الصحابة، وصغر سنه عن كبارهم).

ووصفه الحاكم في المستدرك[3] بأنه: (راهب أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم).

ويُعدّ حجر صحابي من أعيان صحابة الامام علي وولده الحسن عليهما السلام ومن سادات الكوفة وأشرافها، كان حجر بن

---

(١) كندة هي من بني كهلان وبلادهم في اليمن.

(٢) صلح الحسن ـ راضي آل ياسين، ص٣٢٨.

(٣) صلح الحسن ـ راضي آل ياسين، ص٣٢٨.

عدي عابداً ورعاً وبلغ من عبادته أنه ما أحدث إلاَّ توضَّأ وما توضَّأ إلاَّ صلَّى فكان يصلي في اليوم والليلة الف ركعة وكان مجاب الدعوة، وقد ذكر ابن حجر في الاصابة[1]: «أصابته جنابة ـ وهو أسير ـ فقال للموكل به أعطني شرابي أتطهر به، ولا تعطني غداً شيئاً، فقال: أخاف أن تموت عطشاً فيقتلني معاوية.

قال: فدعا الله فانسكبت له سحابة بالماء، فأخذ منها الذي احتاج إليه فقال له أصحابه: ادع الله أن يخلصنا.

فقال: اللهم خِر لنا».

كان حجر في الجيش الذي فتح الشام، وفي الجيش الذي فتح القادسية وشهد الجمل مع علي عليه السلام وكان أمير كندة يوم صفين، وأمير الميسرة يوم النهروان. كان أول من قُتِل صبراً في الاسلام وقد هدم زياد داره في الكوفة.

مقتل حجر:

كانت أحد أساليب معاوية للقضاء على ذكر الامام علي عليه السلام وعزله واخفاء فضائله ومكانته في الاسلام السب والتشهير واللعن على المنابر، فقد روى ابن أبي الحديد المعتزلي:

(كتب معاوية نسخة واحدة: أن برئت الذمة، ممن روى شيئاً

---

(١) الاصابة، ج١، ص٣٢٩.

من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويوقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام)[١].

(وكان معاوية إذا قنت سبَّ علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر)[٢]، وكان معاوية يقول في آخر خطبة الجمعة: (اللهم إنَّه ألحد في دينك وصدَّ عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً وعذّبه عذاباً أليماً)، وكتب بذلك إلى الآفاق[٣].

ولما أراد معاوية أن يستعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة ٤١هـ استدعاهُ وقال له: أردت إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً إيصاءك: لا تترك شتم عليّ وذمه والترحم على عثمان والاستعفال له والعيب لأصحاب علي والاقصاء لهم)[٤].

عمل المغيرة بسياسة معاوية فكان يلعن علياً عليه السلام ويذمه ويتهمه بمخالفة الكتاب وتفريق الكلمة وإراقة دماء المسلمين وكان يقول يوماً ذلك، فسمعهُ حجر فوثب فنعر بالمغيرة نعرة سُمعت من

---

(١) شرح النهج ١١/ ٤٤.
(٢) النصائح الكافية ١٩/ ٢٠.
(٣) شرح النهج ٤/ ٥٦، ٥٧.
(٤) الكامل ٣/ ٤٧٢.

كل جانب من المسجد وسُمعت خارجاً منه وقال له: إنك لا تدري بمن تُولَع، وقد هرمت أيها الانسان وحرمت الناس أرزاقهم وأخَّرت عنهم عطاءهم. وإنما اراد بهذا القول تحريض الناس عليه وقام مع حجر أكثر من ثلاثين كلهم يقولون مثل قوله ويُسمعون المغيرة فيقولون له: أولعْتَ بذم الصالحين وتقريض المجرمين. فنزل المغيرة ودخل داره فعاتبه أصحابه على احتمال حُجر وقالوا: إن معاوية غير محتملك على هذا، فقال: ويحكم إنّي قتلته بحلمي عنه، سيأتي بعدي من لا يتحمله فيقتله في أول وهلة)[١].

وعندما هلك المغيرة وولي زياد الكوفة سنة (٥٠هـ) بعث الى حجر وقد كان له قبل ذلك وَدّاً وصديقاً وقال له: قد بلغني ما كنت تصنع بالمغيرة وما كان يحتمل منك وإني والله غير محتملك، والرائد لا يكذب أهله[٢].

وحدث أن أطال زياد خطبته يوم الجمعة حتى ضاق وقت الصلاة، فقال حجر ـ وكان لا يفارق جمعتهم وجماعتهم ـ: الصلاة! فمضى زياد في خطبته. فقال ثانياً: الصلاة! فمضى في خطبته، وخشي حجر فوت الفريضة فضرب بيده الى كف من الحصا، وثار الى الصلاة وثار الناس معه. وبجانب ذلك كانت لحجر مكانة

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ج٥، ص٢٥٢.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٥٣.

اجتماعية ودينية في الكوفة وكان الناس يجتمعون إليه ويسمعون منه، وقد أدرك زياد خطورة وجود مثل حجر على سلطان بني أمية لذا فقد كتب كتاباً إلى معاوية يقول فيه: «إن كان لك في سلطانك حاجة فاكفني حجراً».

وقد كانت التهمة الموجهة إلى حجر ـ في عرف بني أمية ـ أنه يرد السب عن علي عليه السلام ويحرّض الناس على بني أمية ودعا زياد حواشيه الطيّعة والمتزلفين إليه من ضعاف الدين ليشهدوا أن حجر خلع الطاعة وفارق الجماعة، فقال زياد لأبي بردة بن أبي موسى الأشعري (وكان أحد الشهود) اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما شهد عليه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري لله رب العالمين، أشهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا الى الحرب، وجمع اليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين، وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء». فقال زياد: اشهدوا على مثل شهادته، فشهد اسحاق بن طلحة، وموسى بن طلحة، واسماعيل بن طلحة بن عبيد الله وعمارة بن عُقبة بن أبي مُعيط، وخالد بن عرفطة، والمنذر بن الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن هبّار، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، وعامر بن أمية بن خلف الجمحي، ومُحرز بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس، وعبد الله بن مسلم الحضرمي، وعفاق بن شرحبيل بن أبي رُهم التيمي من ربيعة، ووائل بن حُجر الحضرمي، وكثير بن شهاب بن

الحصين الحارثي، وقطي بن عبد الله الحارثي، والسري بن وقاص الحارثي، وهاني بن أبي حيّه الوادعي، وكُريب بن سلمة بن يزيد، وعمرو بن حريث المخزومي، واسماء بن خارجة الفزاري، ومحمد بن عمير بن عطارد التميمي، ويزيد بن رويم الشيباني، وشبث بن ربعي التميمي، وعتّاب بن ورقاء الرياحي، ومحمد ببن الاشعث الكندي، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، والعُريان بن الهيثم النخعي[1].

وقيل أشهد زياد سبعين على حجر وقال: أما والله لأجهدن على قطع خيط هذا الخائن الاحمق[2]، ثم حمل زياد حجراً وأصحابه الى معاوية في السلاسل على جمالٍ إكتراها لهم صعاباً؛ فلما نفذوا قال عبيد الله بن الحر الجعفي: ألا أجد خمسين فارساً ألا عشرين ألا خمسة نفر يتبعوني فأتخلصهم؟! فلم يجبه أحد ومُضي بهم إلى الشام[3].

أمر معاوية أن يُحبسوا في مَرْج عذراء وقد كان مع حجر في مرج عذراء:

---

(١) أنساب الأشراف ج٥، ص٢٦٤.
(٢) صلح الحسن، ص٣٣١.
(٣) أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٦٥.

١ ـ الأرقم بنِ عبد الله الكندي، وقد كلَّم حبيب بن مسلمة الفهري معاوية فيه فخلّى سبيله.

٢ ـ شريك بن شداد الحضرمي.

٣ ـ صيفي بن فسيل الشيباني.

٤ ـ قبيصة بن ضبيعة العبسي.

٥ ـ كريم بن عفيف الخثعمي، كلَّم معاوية فيه شمر بن عبد الله الخثعمي فخلَّى سبيله.

٦ ـ عاصم بن عوف البجلي، وقد كتب جرير بن عبد الله البجلي الى معاوية فيه فوهبه له.

٧ ـ ورقاء بن سمي البجلي، وقد كتب جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية فيه فوهبه له.

٨ ـ كدام بن حيان.

٩ ـ عبد الرحمن بن حسان العنزي.

١٠ ـ محرز بن شهاب التميمي.

١١ ـ عبد الله بن حوبه السعدي، وقد كلَّم معاوية فيه حبيب بن مسلم الفهري فخلى سبيله.

١٢ ـ عتبة بن الاخنس من سعد بن بكر، وقد كلَّم معاوية فيه أبو الأعور السلمي فوهبه له.

١٣ ـ سعد بن نمران الهمداني، وقد كلم معاوية فيه حمزة بن مالك الهمداني فوهبه له.

وقد كلَّم مالك بن هُبيرة السكوني معاوية في حجر فلم يُجبه وقال: هذا رأس القوم، وهو أنغل المصر وأفسده... ثم بعث معاوية إلى من بقي منهم بأكفان وحنوط مع رجل من أهل الشام ليُرعبهم بذلك، وأمره أن يدعوهم إلى البراءة من عليٍ وإظهار لعنه، ويعد من فعل ذلك أن يتركه، فإن لم يفعل قُتل فإنَّ دماءهم حلال لشهادة أهل مصرهم عليهم، فقالوا: اللهم فإنا لا نفعل ذلك، ثم أمر بقبورهم فحُفرت وأُدنيت أكفانهم، فقاموا الليل يصلّون، فلما أصبحوا عرض عليهم مثل الذي عرض فأبوه. وسألهم حجر أن يصلي ركعتين فأذنوا له في ذلك فصلى وقصَّر ثمَّ قال: والله ما صلَّيت قطّ أقصر منها لأني خفت أن تظنوا بي أني أطلت صلاتي جزعاً من القتل. فقتله الأعور بن فيَّاض بالسيف ويقال: ذبحه ذبحاً.. وقال الهيثم بن عديّ: حمل هُدْبه بن فياض الأعور على حجر بالسيف فاتَّقاه، فقال: ألم تزعم أنك لا تجزع من الموت؟ فقال: وما يمنعني وأنا أرى سيفاً مشهوراً وكفناً منشوراً وقبراً محفوراً، ولا أدري على ما أقدم، فقُتلوا وكُفنوا ودُفنوا[1].

قال حجر في آخر ما قال: «لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٦٧.

عني دماً فإني لاقٍ معاوية غداً على الجاده»[1].

الشهداء المقتولون مع حجر:

٢ ـ صيفي بن فسيل:

من رؤساء أصحاب حجر وكان شديد العقيدة سديد القول. أُلقي القبض عليه وأُحضر لزياد فقال له: يا عدوّ الله، ما تقول في أبي تُراب؟

قال: ومن أبو تُراب؟

قال: ما أعرَفَك به، أما تعرف عليّ بن أبي طالب؟

قال: الذي كنت عامله؟ ذاك أبو الحسن والحسين.

فقال له صاحب شُرطة: يقول لك الأمير أبو تراب وتقول لا؟

قال: أكذِبُ إن كذبَ الأمير وأشهد بالباطل كما شَهدَ؟

فقال زياد: ما قولك في علي؟

فقال: أحسنُ قولٍ أقوله في أحدٍ من عباد اله، أقولُ مثلَ قولك فيه قبل الضلال.

قال: اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلصق بالأرض، فضُربَ حتى لصق بالأرض، ثم قال: أقلِعوا عنه، ما قولك في عليّ؟

---

(١) أنشاب الأشراف، ج٥، ص٢٦٨.

قال: لو شرَّحتني بالمواسي والمُدى ما زُلتُ عمَّا سمعته مني.

قال: لتلعننّه أو لأضربنَّ عنقك.

قال: إذاً تضربها قبل ذلك، فألقوه في السجن ثم أرسلوه مع حجر واستُشهد معه في مرج عذراء[1]

٣ ـ عبد الرحمن بن حسان العنزي:

كان في قافلة حجر التي سِيقت إلى مرج عذراء وعند وصولهم إليها طلب أن يبعثوا به إلى معاوية، وحينما جيء به إلى معاوية قال له: ما تقول في عليّ؟

قال: كان من الذاكرين كثيراً والآمرين بالحق سراً وجهراً، فلا تسألني من غير هذا فهو خيرٌ لك.

فبعث به إلى زياد وكتب إليه ان اقتله شرّ قتلة، فبُعث إلى قُسّ الناطف (موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقي) فدُفن حياً[2] (وكان أول من يُدفن حياً في الاسلام).

وكان عبد الرحمن هذا هو القائل حين جاءهم جلادو معاوية

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٦٠.
(٢) أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٦٧.

في مرج عذراء: «اللهم اجعلني ممن تكرم بهوانهم وأنت عني راضٍ»[1].

٤ ـ قبيصة بن ربيعة العبسي:

وهو من أصحاب حجر الذي صمم على المقاومة بسلاحه لولا أن صاحب الشرطة آمنه على دمه وماله، فوضع يده في أيديهم إيماناً ببراءة الأمان الذي كان لا يزال متبعاً لدى العرب فضلاً عن أهل الاسلام.

وأُحضر ابن ضبيعة العبسي لزياد فقال له: «أما والله لأجعلنَّ لك شاغلاً عن تلقيح الفتن والتوثب على الامراء!!

قال: إني لم آتك إلاَّ على الأمان.

قال: انطلقوا به إلى السجن.

وكان مع الركب الذي سُيِّر إلى الشام وفي الطريق مروا به على داره، فإذا بناته مشرئبات إليه يبكينه فقال للحرسين: إئذنا لي فأوصي إلى أهلي، فلما دنا منهنَّ وهنَّ يبكين سكت عنهن ـ ساعة ـ ثم قال لهنَّ: (اسكتن)، فسكتن فقال: إتقين الله عزَّ وجل واصبرن فإني أرجو من ربي في وجهي هذا إحدى الحسنين: إما الشهادة وهي السعادة وإما الانصراف إليكن في عافية وإن الذي يرزقكن مؤونتكن

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٦٧.

هو الله تعالى، وهو حي لا يموت، أرجو أن لا يضيعكنَّ، وأن يحفظني فيكنَّ، ثم استشهد مع حجر وأصحابه»[1].

٥ ـ كدام بن حيان العنزي.

٦ ـ محرز بن شهاب التيمي.

٧ ـ شريك بن شداد.

٨ ـ عمرو بن الحمق الخزاعي:

هو ابن الكاهن بن حبيب بن عمرو بن القين بن ذراح بن عمرو بن سعد بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي. أسلم قبل الفتح وهاجر إلى المدينة فكان الصحابي البرّ الذي حظي بدعوة النبي ﷺ بأن يمتعه بشبابه فمرت عليه ثمانون سنة ولم يُرَ له شعرة بيضاء[2] على صباحة في وجهه كانت تزيده بهاء، وصَحِبَ بعده أمير المؤمنين علي عليه السلام، فكان الحواري المخلص الذي يقول له عليه السلام بحق: «ليت في جندي مائة مثلك» وشهد معه الجمل وصفين والنهروان. ودعا له أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «اللهم نَوّر قلبه بالتقى، واهده إلى صراطك المستقيم». وقال له عليه السلام: يا عمرو إنك لَمقتول بعدي، وإن رأسك لمنقول وهو أول رأس يُنقل في الاسلام، والويل لقاتلك»[3].

---

(١) الطبري، ج٥، ص٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧٥.

(٢) تهذيب التهذيب، ابن حجر، ج٨، ص٢٤.

(٣) سفينة البحار، ج٢، ص٣٦.

قال ابن أثير: ولما قَدِم زياد الكوفة قال له عمارة بن عقبة بن أبي معيط: إن عمرو بن الحمق يجمع إليه شيعة أبي تراب، فأرسل إليه زياد: ما هذه الجماعات عندك؟ من أردت كلامه، ففي المسجد[1].

ثم لم يزل عمرو فيما يروي الطبري خائفاً مترقباً حتى كانت حادثة حجر بن عدي الكندي فأبلى فيها بلاءً حسناً وضربه رجل من الحمراء و(شرطة زياد) يدعى بكر بن عبيد بعمود على رأسه فوقع وحمله الشيعة فخبأوه في دار رجل من الأزد ثم خرج فاراً وصحبه (رفاعة بن شداد) فيمما المدائن ثم ارتحلا حتى أتيا أرض الموصل فكمنا في جبل هناك، وبلغ عامل الرستاق ذلك فأنكر شأنهما واستراب بهما، فصار اليهما ومعه أهل البلد، فلما مضى إلى موضعهما خرجا إليه فأما عمرو بن الحمق فكان مريضاً قد سقى بطنه فلم يكن عنده امتناع، فأُخِذ وأما رفاعة فكان شاباً قوياً فوثب على فرس له جواد وحمل على القوم فأفرجوا له فخرج وخرجت الخيل في طلَبه وكان رامياً فجعل يرمي من لحقه فيجرحه حتى نجا بنفسه وأمسكوا عن طلبه، فيقال إنه قال لعمرو بن الحمق: أقاتل عنك؟ فقال: انجُ بنفسك، وسألوا عمراً من هو فلم يخبرهم فبعث به عبد الله بن أبي تلعه إلى عبد الرحمن بن أم الحكم أخت معاوية؛

---

(١) الكامل، ابن الأثير، ج٣، ص١٥٣.

وهو الذي قتل عليّ عليه السلام جده عثمان الثقفي يوم حنين، فلما رأى عمرو عرفه فحبسه وكتب إلى خاله معاوية بظفره به، فكتب معاوية إليه: إنه يزعم أنه طعن عثمان تسع طعنات وإنا لا نريد أن نعتدي عليه، فاطعنه تسع طعنات كما طُعن عثمان، فأُخرج فطُعِن تسعاً مات في الأولى أو الثانية ثم أُحتزَّ رأسه وبُعث به إلى معاوية، فهو أول رأس بُعث به إلى معاوية، وكان معاوية قد حبس زوجته آمنة بنت سُويد فوُضع رأسه في حجرها فقالت: لقد نفيتموه طويلاً وأهديتموه قتيلاً، فمرحباً به من هدية غير مَقليّة، ونفاها إلى حمص فماتت هناك[1].

الـمُلفـت للنظـر أنَّ أول رأس رُفـع فـي الإسـلام هـو رأس عمرو بن الحمق وأول امرأة تُسجن في الاسلام بلا ذنب هي زوجته آمنة بنت سويد.

٩ ـ رُشيد الهجري[2]:

لقد كان اختيار الامام علي عليه السلام لمدينة الكوفة عاصمة له ذا مرامي بعيدة المدى تجلَّت في مدرسته التي تتلمذ فيها على يديه كبار شخصيات الكوفة وأنتجت هذه المدرسة عقائد راسخة تجلَّت في مواقف تاريخية خالدة.

---

(١) أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٨٢.

(٢) رُشيد (بالتصغير) وهَجَري (بفتح أوليه) نسبة إلى بلاد الهجر ـ البحرين.

كان رُشيد أحد هؤلاء التلاميذ فكان تخصصه بعلم البلايا والمنايا، وهو العلم الذي يخبر عن الغائب والكائن قبل كونه، وقد تعلَّمه الامام علي عليه السلام من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلَّمه لرُشيد، وظلَّ حتى بعد استشهاد الامام يتفقَّه ويتبحَّر في هذا العلم وأصبح عَلماً من أعلامه وأصبح يخبر عن مصير معاوية، وكيف ستنتهي حياة زياد، وكيف تكون نهاية الدولة الأموية؛ مما أغاظ الدولة الأموية وأزعج زياد فطلبه فاختفى ثم أُتِي به الى زياد «قال بن عياش، عن مجالد عن الشعبي عن زياد بن النضر الحارثي قال: كنت عند زياد بن أبيه إذ أُتِيَ برُشيد الهجري فقال له زياد: ما قال لك صاحِبُكَ (يعني علي عليه السلام) إنَّا فاعلون بك؟

قال رُشيد: تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني.

فقال زياد: أما والله لأكذبنَّ حديثه، فلما أراد أن يخرج قال زياد: والله ما نجد له شيئاً شراً مما قال صاحبه.. إقطعوا يديه ورجليه واصلبوه.

فقال رُشيد الهجري: هيهات قد بقي لي عندكم شيء أخبرني به أمير المؤمنين عليه السلام. قال زياد: ما هو؟ قال رشيد: إنكم تقطعون لساني.

قال زياد: إقطعوا لسانه..!

فقال رُشيد: الآن والله، جاء تصديق خبر أمير

المؤمنين عليه السلام[1]، وأُخرج من القصر مقطَّعاً، فاجتمع الناس حوله ومات من ليلته رضوان الله عليه.

قالت ابنته: قلت لأبي: ما أشد اجتهادك!

قال: يا بنيَّة يأتي قوم بعدنا بصائرهم في دينهم أفضل من اجتهادنا.

وقال لها: يا بنيتي أميتي الحديث بالكتمان، واجعلي القلب مسكن الأمانة[2].

وقد كان يروي عنه أُناسٌ كثيرون ولكنهم جميعاً سكتوا عن اسمه خوف السلطان الأموي وبطشه، فلم تُروَ عنه علناً إلاَّ ابنته الوحيدة (قنوا) التي كانت قد حضرت مقتله وهي التي جمعت أطرافه ـ يديه ورجليه ـ وقد قطعها زياد بن سمية.

١٠ ـ أوفى بن حصن:

كان من المطلوبين لدى زياد وقد أبى مواجهته، ولكن زياد حظى به حين استعراضه الناس حيث سأل: من هذا؟ فقيل له: أوفى بن حصن.

فقال زياد: أتتك بخائنٍ رجلاه، وقال له: ما رأيك في عثمان؟

---

(١) الارشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد.

(٢) سفينة البحار، ج١، ص٥٢٢.

قال: ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه.

قال: فما تقول في معاوية؟

قال: جوادٌ حليم.

وقد كان أوفى لَبِقاً حاذقاً في أجوبته لزياد فلم يجد عليه ملزماً، فقال له: فما تقول فيَّ؟

قال: بلغني أنك قلت بالبصرة: والله لآخذن البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر.

قال: قد قلت ذاك.

قال: خبطتها خبط عشواء!

فقال زياد فيه: ليس النفاخ بشر الزمرة ثم أمر به فقُتِل[1].

لو تأملنا هذه المحاورة التي دارت بين زياد وأوفى نب حصن نجد أنَّ أوفى كان متحفظاً في جميع أجوبته وقد استعمل التقية في كلامه ولكن ذلك لم يجدي مع زياد الذي كان متعطشاً لدماء الموالين لعلي عليه السلام ولكل رافض للنهج المنحرف. ولقد كان أوفى على حد رواية ابن الأثير أول قتيل قتله زياد بعد حادثة الثلاثين أو الثمانين الذين قطع أيديهم..

١١ ـ عُديّ بن حاتم الطائي:

صحابي جليل أدرك الرسول وأسلم بعد أسر أُخته سفانه بنت

---

(١) الكامل، ابن الأثير ج٣، ص١٨٣، والطبري ج٥، ص١٣٠، ١٣٢.

حاتم الطائي بعد غزو سرية بعثها الرسول ﷺ إلى اليمن وقد حَسُن إسلامه، وأسلمت معه طيء وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة.

قال عدي: «فلما قدمتُ المدينة استشرفني الناس فقالوا: عدي بن حاتم! وقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عدي أسلم تسلم.

قلت: إن لي ديناً، قال: أنا أعلم بدينك منك.. قد اظن أنه إنما يمنعك غضاضة تراهامن حولي، وأنك ترى الناس علينا إلباً واحداً، قال: هل أتيت الحيرة؟

قلت: لم آتها وقد علمت مكانها.

قال: يوشك أن تخرج الضعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز.

فقلت: كسرى بن هرمز؟

قال: نعم وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته.

قال عدي: «فرأيت اثنين: الضعينة، وكنت في أول خيل غارت على كنوز كسرى، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة»[١].

وقام في حرب الردة بأعمال كبيرة حتى قال ابن الأثير: خير

---

(١) الاصابة، ج٤، ص٢٢٨.

مولود في أرض طي وأعظمه بركة عليهم، وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة.

وقال عدي: «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلاَّ وأنا على وضوء»(١).

ولعدي مواقف كثيرة نستشرف منها صدق إيمانه وإخلاصه للامام علي عليه السلام، فقد شهد الجمل وصفين والنهروان، ففي معركة الجمل استنفر قومه لنصرة علي عليه السلام فخطب في قومه قائلاً: (يا معشر طيء إنكم أمسكتم عن حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الشرك ونصرتم الله ورسوله في الاسلام على الردة، وعليٌ قادم عليكم وقد ضمنت له مثل عدة من معه منكم، فخُفُوا معه، وقد كنتم تقاتلون في الجاهلية على الدنيا، فقاتلوا في الاسلام على الآخرة)(٢).

وفي صفين حيث أوشك جيش الامام عليه السلام على النصر فلجأ معاوية وعمرو بن العاص الى خدعة رفع المصاحف فكان رأي عدي بن حاتم الذي ترجمه بقوله: «يا أمير المؤمنين، إن أهل الباطل لا تعوق أهل الحق وقد جزع القوم حين تأهبت للقتال بنفسك، وليس بعد الجزع إلاَّ ما تحب، ناجز القوم» وقد فُقئت عينه يوم صفين، وقد بعث إليه زياد سنة (٥١هـ) وكان في المسجد الذي يعرف بـ(مسجد عدي) في الكوفة فأخرجه منه، وحبسه. فلم يبق رجل من أهل

---

(١) الاصابة، ج٤، ص٢٢٥.

(٢) الامامة والسياسة، ج١، ص٧٧.

المصر من اليمن وربيعة ومضر إلاَّ فزع لعدي بن حاتم، فأتوا زياد وكلموه فيه، وقالوا: «تفعل هذا بعدي بن حاتم صاحب رسول الله ﷺ؟ وطلب زياد من عدي أن يجيئه بعبد الله بن خليفة الطائي، وكان من أصحاب حجر بن عدي (ومن) أشدائهم على شرطة زياد «الحمراء»، فأبى ثم رضى زياد من عدي أن يغيب ابن خلَيفة عن الكوفة[1] ودخل عدي بن حاتم على معاوية، وإن معاوية ليهابه ويعرف سداده وبصيرته في الأمور فقال له: يا عدي أين الطُرفات؟ (يعني بنيه طريفاً وطارفاً وطرفه).

قال: قُتلوا يوم صفين بين يدي علي بن أبي طالب.

فقال: ما أنصفك ابن أبي طالب، إذ قدَّم بنيك وأخَّر بنيه.

قال: بل ما أنصفت أنا علياً، إذ قُتِل وبَقيت بعده.

فقال معاوية: أما إنه قد بقي قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلاَّ دم شريف من أشراف اليمن.

فقال عدي: والله إن قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن أدنيت لنا من الغدر فترا لندين إليك من الشر شبرا! وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم، لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي، فسلّم السيف يا معاوية لباعث السيف.

---

(١) ابن الأثير، ج٣، ص١٨٩.

فقال معاوية: هذه كلمات حكم فاكتبوها.

هنا لم يجد معاوية جواباً لعدي فغيّر لهجته في الخطاب وأقبل على عدي يحادثه كأنه ما خاطبه بشيء[1] ثم قال له: «صف لي علياً».

فقال: إن رأيت أن تعفيني.

قال: لا أعفيك.

قال: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول عدلاً، ويحكم فضلاً، تتفجر الحكمة من جوانبه، والعلم من نواحيه، يستوحش في الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا، ويقلّب كفيه على ما مضى، يعجبه من اللباس القصير ومن المعاش الخشن، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويدنينا إذا أتيناه، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيبته ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسَّم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويتحبب إلى المساكين، لا يخاف القوي ظلمه، ولا ييأس الضعيف من عدله...».

ثم قال له: فكيف صبرك عنه؟

قال: كصبر من ذُبحَ ولدها في حجرها، فهي لا ترقأ دمعتها ولا تسكن عبرتها.

---

(١) المسعودي، هامش ابن الاثير، ج٦، ص٦٥.

قال: فكيف ذكرك له؟

قال: وهل يتركني الدهر إن أنساه.

توفي عدي بن حاتم في عهد المختار سنة (٦٨هـ).

١٢ ـ جويريه بن مسهر العبدي:

كان جويريه بن مسهر العبدي الكوفي صالحاً، وكان لعلي عليه السلام صديقاً، وكان علي عليه السلام يحبه، نظر إليه يوماً وهو يسير فناداه: يا جويريه إلحق بي فإني إذا رأيتك هويتك.

قال اسماعيل بن إبان: فحدثني الصباح عن مسلم عن حبه العرني قال: سرنا مع علي عليه السلام يوماً فالتفت، فاذا جويريه خلفه بعيداً، فناداه: يا جِويريه إلِحق بي لا أبا لك، ألا تعلم إني أهواك وأحبك. قال: فركض نحوه فقال له: إني محدثك بأمورٍ فاحفظها، ثم اشتركا في الحديث سراً، فقال له جويريه: يا أمير المؤمنين إني رجل نسَّاء، فقال: أنا أعيدُ عليك الحديث لتحفظه، ثم قال في آخر ما حدَّثه إياه: يا جويريه أحب حبيبنا ما أحبنا، فإذا أبغضنا فابغضه، وابغض بغيضنا ما أبغضنا فإذا أحبنا فأحبه.

قال: فكان ناس ممن يشك في أمر علي عليه السلام يقولون: أتراهُ جعل جويريه وصيّه كما يدّعي، وهو من وصية رسول الله، قال: يقولون ذلك لشدة اختصاصه له حتى دخل على عليّ عليه السلام يوماً وهو مضطجع وعنده قوم من أصحابه فنادى به جويريه: أيها النائم استيقظ

فتلضربن على رأسك ضربة يخضب مثلها لحيتك.

قال: فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام ثم قال: وأحدثك يا جويريه بأمرك، أما والذي نفسي بيده لتُعتلُنَّ إلى العتل الزنيم وليقطعنَّ يدك ورجلك وليصلبنَّك تحت جذع كافر.

قال: فوالله ما مضت الأيام على ذلك حتى أخذ زياد اللعين جويريه فقطع يده ورجله وصُلِبَ إلى جانبه ابن معكبر، وكان جذعاً طويلاً فصلبه على جذع قصير الى جانبه.

وكان زياد ابن أبيه ممن نصب العداوة لأمير المؤمنين عليه السلام وكان يتتبع أصحاب علي وهو بهم أبصر فيقتلهم تحت كل حجرٍ ومدر[1].

١٣ ـ عبد الله بن خليفة الطائي:

من الأشخاص الذين نفاهم زياد وماتوا في المنفى، وهو من الشخصيات المعروفة بولائها لأمير المؤمنين، وقد شهد معه عدة مواقف كالعذيب وجلولاء ونهاوند وتستر وصفين، صحب حجر بن عدي الكندي موقفه الذي وقفه في رفض اللعن لأمير المؤمنين عليه السلام ، فطاردته شرطة زياد وعلى رأسهم بكير بن حمران الأحمري فأقبلوا في طلبه فوجدوه في مسجد عدي بن حاتم فأخرجوه، فلما أرادوا أن يذهبوا به، وكان عزيز النفس، امتنع منهم

(١) تاريخ الكوفة/ البراقي ٢٩١.

فحاربهم وقاتلهم فشجوه ورموه بالحجارة حتى سقط فنادت ميثاء أخته: يا معشر طي أتسلمون ابن خليفة؛ لسانكم وسنانكم، فلما سمع الأحمري نداءها خشي أن تجتمع طي فيهلك، فهرب فخرج نسوة من طي فأدخلنه داراً، وانطلق الأحمري حتى أتى زياداً فقال: إن طيئاً اجتمعت إليَّ فلم أطقهم فأتيتك، فبعث زياد إلى عدي وكان في المسجد فحبسه وقال: جئني به، وقد أخبر عديّ بخبر عبد الله.

فقال عديّ: كيف آتيك برجل قد قتله القوم؟

قال: جئني به، حتى إن قد قتلوه فاعتلّ له.

وقال: لا أدري أين هو ولا ما فعل، فحبسه، فلم يبق رجل من أهل المصر، من أهل اليمن وربيعة ومضر إلاّ فزع لعدي، فأتوا زياد فكلموهُ فيه وأخرج عبد الله فتغيَّب في بحتر، فأرسل الى عدي إن شئت أن أخرج حتى أضع يدي في يدك فعلت، فبعث إليه عديّ: والله لو كنت تحت قدمي ما رفعتها عنك، فدعا زياد عديّاً فقال له: إنّي أخلي سبيلك على أن تجعل لي لتنفيه من الكوفة ولتسير به إلى جبلي طي.

قال: نعم، فرجع وأرسل إلى عبد الله بن خليفة أن اخرج فلو قد سكن غضبه لكلمته فيك حتى ترجع إن شاء الله، فخرج إلى (الجبلين)[1] وقيل إلى (صنعاء) ولم يزل مشرداً هناك مشبوب

(١) الغدير ١١/٤٧.

الأشواق إلى وطنه وطال عليه الأمر فكتب يستنجز عدياً وعده ولكن ظروف عدي لم تساعده على إسعافه فبقي هناك حتى مات رحمه الله قبل موت زياد[١].

١٤ ـ مالك الأشتر:

هو مالك بن الحارث النخعي، ولد عام ٢٥ قبل الهجرة النبوية وقد كان من المؤمنين الذين شهد لهم النبي ﷺ بذلك فقال: (إنه المؤمن حقاً)[٢]، وفي عهد الخليفة أبي بكر قاتل أبا مسيكه الأيادي عندما ارتدَّ عن الاسلام وقتله، وشارك في معركة اليرموك حيث شُترت فيها عينه فصار يلقَّب بالأشتر بعد ذلك أُرسل مدداً لمحاربة كسرى، وبعد انتصار المسلمين عاد إلى الكوفة.

في خلافة عثمان كانت ولاية الكوفة للوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقد استاء المسلمون والصلحاء في الكوفة من شربه للخمور وشكوهُ إلى عثمان، فلم يسمع لهم إلى أن أقام عليه الحد علي بن أبي طالب عليه السلام فاضطر لعزله وأرسل مكانه سعيد بن العاص[٣]. برز دور الأشتر في الوقوف بوجه الولاة الأمويين ووصل أوجه في زمن سعيد بن العاص الذي زعم: ان السواد بستان لقريش، فثار الصلحاء

---

(١) الطبري، ج٥، ص٥، ١٥٧، ١٦٠.

(٢) أعيان الشيعة ٩/ ٤١، كما ذكره في حديث دفن أبي ذر حيث قال: يلي دفنه رهط صالحون، وقد دفنه مالك الأشتر وأصحابه الكوفيون (أنساب الأشراف ٥/ ٥٥).

(٣) مروج الذهب/ المسعودي.

والقرّاء عليه فطلب من الخليفة عثمان إخراجهم من الكوفة فنفاهم الى الشام، فطلب معاوية من الخليفة إخراجهم من الشام فنفاهم (بعض صلحاء الكوفة: الأشتر زيد وصعصعة بن صوحان، كميل بن زياد، جندب بن نصير الازدي، حرقوص بن زهير السعدي، شريح ابن اوفى العبسي، كعب بن عبده النهدي، عدي بن حاتم الطائي)، إلى حمص وعندما إمتنع عثمان عن عزل سعيد منعه الكوفيون من دخول الكوفة، ثم ثار أهل الأمصار (الكوفة، مصر، البصرة) على الخليفة عثمان وطلبوا منه أن يعتزل الخلافة لأنه ليس بكفء لها لسوء إدارته وحمله بني أمية على رقاب الناس حيث عانت الأمصار من مظالم ولاته. .

بعد مقتل الخليفة عثمان كان من أوائل المبايعين للامام علي عليه السلام وعندما ثبط أبو موسى الأشعري الناس في الكوفة عن اللحوق بجيش علي عليه السلام في حرب الجمل سار الأشتر إليه بأمر علي عليه السلام فطرده من المسجد وعزله، وزود الامام بالمقاتلين وحشد القوات له، وكان صاحب الميمنة في حرب الجمل، وكان المحور في حرب صفين وقد قاد جيشاً تعداده (٤٠٠٠) وقد قاد الزحوف حتى انتهى الى جيش الشام، فأراد معاوية الهرب أو طلب الأمان وعندما رفع أهل الشام المصاحف انخدع بها أهل العراق وكان الأشتر دحر ميسرة الشام وكان النصر معلقاً بيمينه حيث رفع القوم المصاحف وجرى التحكيم، بعدها عاد الأشتر الى عمله بالجزيرة على الموصل ونصيبين وكان هذه الناحية من الأهمية لقربها من الشام

وطمع معاوية في فتح ثغرة فيها، ولكنَّ الأشتر ضبطها ضبطاً محكماً، ثم وجهه علي عليه السلام إلى مصر ليصبح والياً عليها، وقد كتب أمير المؤمنين عليه السلام لأهل مصر لما ولّى عليهم الأشتر كتاباً جاء فيه: (أما بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع أشدّ على الفجار من حريق النار)[1]، وقد عظم هذا الأمر على معاوية فأغرى الجايستار، وهو رجل من أهل الخراج (أو دهقان القلزم) بقتل الأشتر على أن يكون خراج تلك المنطقة له مدة حياته، فسقى الرجل الأشتر السم في العسل فاستُشهد رحمه الله وقد رثاه أمير المؤمنين عليه السلام بمالم يرث به أحداً من أصحابه وبكى عليه أياماً وحزن عليه حزناً شديداً وقد رثاه قائلاً:

(إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، اللهم إني أحتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر، ثم قال: رحم الله مالكاً فقد كان وفى بعهده وقضى نحبه ولقي ربه مع إنَّا وقد وطَّنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانها من أعظم المصائب).

وقال عليه السلام: رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2].

---

(١) الأميني، الغدير، ج٩، ص٣٨.
(٢) الأميني، الغديرج٩، ص٣٨.

وقال عليه السلام: على مثلك فلتبك البواكي يا مالك، وإنّى مثل مالك.

ولما بلغ معاوية موته قام خطيباً في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: أمَّا بعد، فإنّه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان قُطعت إحداهما يوم صفين وهو عمَّار بن ياسر وقُطعت الأخرى اليوم وهو مالك الأشتر.

١٥ ـ صعصعة بن صوحان العبدي:

يكنى أبا طلحة، سيد من سادات قومه عبد القيس، أسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه لم يلقه لصغرهِ، وكان فصيحاً خطيباً عاقلاً لسناً ديّناً فاضلاً بليغاً. . أشكلت على عمر أيام خلافته قضية فخطب الناس وسألهم عما يقولون حين قسم المال الذي بعث به أبي موسى وكان ألف الف درهم، وفضلت منه فضله فاختلفوا عليه حيث يضعها فقام صعصعة، وكان غلاماً شاباً فقال: يا أمير المؤمنين إنما تشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن، وأما ما نزل الله به من القرآن ووضعه في مواضعه التي وضعها الله تعالى فيها. فقال عمر: صدقت أنت مني وأنا منك. فقسم بين المسلمين[1].

وكان من أصحاب الخطط بالكوفة، وفي زمن الخليفة عثمان حيث كان سعيد بن العاص والياً على الكوفة سُيّر مع طائفة من

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٢، ص٢٧٣.

صلحاء الكوفة الى الشام، وذلك بسبب رفضهم التعصب القبلي والاستعلاء الذي أظهره سعيد بن العاص، ثم سيّرهم معاوية من الشام إلى الكوفة وبعدها أخرجهم سعيد بن العاص الى حمص حيث أخذهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالشدة والغلظة ثم أعادهم إلى الكوفة. وهذا يعني أن صعصعة كان في طليعة الثلّة الرافضة للانحراف، وبعد مبايعة الامام علي عليه السلام شهد معه الجمل هو وأخواه زيد وسيحان وكان سيحان الخطيب قبل صعصعة وكانت الراية بيده يوم الجمل فقُتل فأخذها زيد فقُتل فأخذها صعصعة وشهد مع الامام علي عليه السلام صفين[1].

قال ابن حجر بترجمته: «وله مع معاوية مواقف» ومن هذه المواقف؛ أنَّ معاوية طلب إليه أن يصعد المنبر فينال من علي عليه السلام، فصعد المنبر فقال: أيُّها الناس إنَّ أمير المؤمنين أمرني أن ألعن علياً فالعنوه عليه لعنة الله، فضج أهل المسجد بآمين، فقال معاوية: والله ما عنيت غيري، أخرجوه والله لا يساكنني في بلد، فأخرجوه.

وفي الاصابة أنَّه نفاه إلى البحرين فمات بها، أقول وقبره في البحرين ظاهر في قرية يقال لها: عسكر[2].

---

(١) الغارات، ص٣٥٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الاصابة ج٣، ص٢٠٠.

وفي رواية المسعودي: حبس معاوية صعصعة العبدي وعبد الله بن الكواء اليشكري ورجالاً من أصحاب علي مع رجال من قريش فدخل عليهم معاوية يوماً فقال: نشدتكم بالله إلاَّ قلتم حقاً وصدقاً أيُّ الخلفاء رأيتموني؟ فقال ابن الكواء: لولا أنك عزمت علينا ما قلنا، لأنك جبار عنيد، لا تراقب الله في قتل الأخيار، ولكنا نقول: إنك ما علمنا واسع الدنيا ضيق الآخرة، قريب الثرى، بعيد المرعى، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات، فقال معاوية: إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته، التاركين لمحارمه، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله، والمحلين ما حرَّم الله، والمحرمين ما أحلَّ الله.

فقال عبد الله بن الكواء: يابن أبي سفيان إن لكل كلام جواباً، ونحن نخاف جبروتك، فإن كنت تطلق ألسنتنا ذبينا عن أهل العراق بألسنة حداد لا تأخذها في الله لومة، وإلاَّ فإنا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه.

قال: والله لا يطلق لك لسان.

ثم تكلَّم صعصعة فقال: تكلمت يابن ابي سفيان فأبلغت ولم تقصر عمَّا أردت، وليس الأمر على ما ذكرت، أنّى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذِباً ومكراً، أما والله ما لك في يوم بدر مضرب ولا مرمى، وما كنت فيه إلاَّ كما

قال القائل: لا حلي ولا سيري، ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله ﷺ، وإنما أنت طليق ابن طليق أطلقكما رسول الله ﷺ، فأنّى تصلح الخلافة لطليق؟

فقال معاوية: لولا أني أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول:

قـــابلـــت جهلهـــمُ حلمـــاً ومغفـــرةً
والعفـــو عـــن قـــدرةٍ ضـــربٌ مـــن الكـــرم

لقتلتكم، وسأله معاوية: من البررة ومن الفسقة؟

فقال: يابن ابي سفيان ترك الخداع من كشف القناع، عليٌّ وأصحابه من الأئمة الأبرار، وأنت وأصحابك من أولئك، وسأله عن أهل الشام فقال: أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق، عصاة الجبار، خلفة الأشرار، فعليهم الدمار، ولهم سوء الدار.

فقال معاوية: والله يابن صوحان إنك لحامل مديتك منذ أزمان، إلاَّ أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك. فقال صعصعة: بل أمر الله وقدرته، إن أمر الله كان قدراً مقدوراً[١].

وكان صعصعة شخصية بارزة في أصحاب أمير المؤمنين، ووصفه أمير المؤمنين بالخطيب الشحشح ثم وصفه الجاحظ بأنه من أوضح الناس.

---

(١) المسعودي، هامش ابن الاثير ٦/ ١١٧.

وقال له معاوية يوم دخل الكوفة بعد الصلح: «أما والله إني كنت لأبغضنَّ أن تدخل في أماني».

قال: «وأنا والله أبغض أن أسميك بهذا الاسم». ثم سلَّم عليه بالخلافة فقال معاوية: «إن كنت صادقاً فاصعد المنبر والعن علياً». فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أتيتكم من عند رجل قدَّم شره، وأخَّر خيره، وانه أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله. فضج أهل المسجد بآمين. فلما رجع إليه فأخبره بما قال. قال: لا والله ما عنيت غيري، إرجع حتى تسميه باسمه. فرجع وصعد المنبر ثم قال: «يا أيها الناس إن أمير المؤمنين أمرني أن ألعن علياً بن أبي طالب فالعنوه، فضجوا بآمين. فلما أُخبر معاوية قال: والله ما عنى غيري، أخرجوه لا يساكنني في بلد، فأخرجوه»[1].

وقال ابن عبد ربه: دخل صعصعة بن صوحان على معاوية ومعه عمرو بن العاص جالس على سريره فقال: وسّع له على ترابية فيه (يعني على حبه لأبي تراب) فقال صعصعة: «إني والله لترابي، منه خُلقت وإليه أعود ومنه أُبعث، وإنك مارج من مارج من نار».

وقَدِم وفدُ العراقيين على معاوية، فقدم في وفد الكوفة عدي بن حاتم، وفي وفد البصرة الأحنف بن قيس وصعصعة بن صوحان، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: «هؤلاء رجال الدنيا، وهم

---

(١) القمي، سفينة البحار، ج٢، ص٣١.

شيعة علي الذين قاتلوا معه يوم الجمل ويوم صفين فكن منهم على حذر».

* * *

لو ألقينا نظرة سريعة على بعض هذه الشخصيات الكوفية التي سردنا لمحاً مما قاسته من معاوية وواليه زياد، لرأينا أن أقسى ما جرى على الانسان في الاسلام قد جرى على هؤلاء لولائهم لعليّ عليه السلام فكان:

١ ـ حجر بن عديّ وأصحابه أول من قُتِل صبراً في الاسلام.

٢ ـ عمرو بن الحمق أول من طِيف برأسه في الاسلام.

٣ ـ عبد الرحمن بن حسان العنزي هو أول من دُفِنَ حياً في الاسلام.

٤ ـ آمنة بنت سويد زوج عمرو بن الحمق أول امرأة تُسجن في الاسلام كرهينة من أجل إجبار زوجها على تسليم نفسه.

٥ ـ عديّ بن حاتم أول شيخ قبيلة يُسجن بوزر أحد أفراد قبيلة.

لقد كانت لسياسة معاوية بالتنكيل بالشيعة وارهاب زياد وقتله لكبار الشخصيات والصلحاء وقطعه الأيدي والأرجل وسمله للأعين سبباً في خنوع الكوفة واستكانتها وانكسارها وتحولها من النهج المقاوم للانحراف إلى النهج المستكين الذي يضمر الرفض ويظهر

الطاعة والولاء. هذا إذا أضفنا لعامل الارهاب عامل النفاق والانتهازية الذي اتصف به بعض أشراف الكوفة فكان لهم الدور الكبير في التأثير على بسطاء الناس وعامتهم ممن تؤثر فيهم الدعاية وينعقون مع كل ناعق وأبرز هؤلاء هو:

الأشعث بن قيس الكندي:

هو الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، لُقّبَ بالأشعث لأنه أشعث الرأس أبداً، أُسِرَ في أحد الحروب في الجاهلية وفُدِيَ بثلاثة آلاف بعير وأسلم سنة (١٠هـ) بعد وفود كندة على النبي ﷺ بعد فتح مكة وإسلام قريش إرتد بعد وفاة النبي ﷺ مع بني وليعة وغدر بهم بعد أن ملَّكوه عليهم[١]. كان المسلمون يلعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً، وسمَّاه نساء قومه عُرف النار؛ كلام يمان يسمون به الغادر عندهم (وكان قد غدر بقومه يوم حصن النجير حين أسلمهم للقتل ليسلَم هو وأهل بيته والقصة معروفة)[٢]، وأُسِرَ فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته أم فروة، شهد اليرموك ثم القادسية وفُقِئت عينه في اليرموك.

إبتنى داراً بالكوفة في كندة وسكن بها بعد تمصيرها، وكان عاملاً لعثمان على اذربيجان، وحين تولَّى الامام علي عليه السلام الخلافة

---

(١) الطبري، ج٣، ص٣٨٣، حوادث سنة (١١).

(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج، ج١، ص٩٦.

أشار الأشعث ثقاته اللحوق بمعاوية إلى الشام بعد أن بعث الامام عليه السلام له كتاباً جاء فيه: (أما بعد فلولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس فلعلَّ أمراً يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله... وإن عملك ليس لك بطعمه، ولكنه أمانة في عنقك والمال مال الله، وأنت من خزاني عليه حتى تسلمه إليَّ إن شاء الله، وعليَّ أن لا أكون شر ولاتك)[1].

وقد قال الأشعث لثقاته: (إنَّ كتاب علي جاءني وقد أوحشني وهو آخذني بمال آذربيجان وأنا لاحق بمعاوية، فقال القوم: الموت خيرٌ لك من ذلك، أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام)[2].

شَهِدَ مع علي عليه السلام صفين وذلك بعد أن بلغ أهل العراق مسير معاوية إلى صفين فجدُّوا ونشطوا في التجهز مع جيش الامام، غير أنه كان من الأشعث بن قيس شيء عند عزل علي إياه من الرياسة، وذلك إن رياسة كندة وربيعة كانت للأشعث فدعا عليٌّ حسان بن مخدوج فجعل له تلك الرياسة، فتكلم في ذلك أهل اليمن؛ منهم الأشتر وعدي بن حاتم وزهر بن قيس وهاني بن عروة... ثم أعاد عليٌّ الرياسة إليه فولاَّه ميمنته (وهي ميمنة أهل

(١) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج١، ص١١١.
(٢) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج١، ص١١٢.

العراق)[1] وحين دعا أهل الشام إلى تحكيم كتاب الله قام الأشعث فقال: (يا أمير المؤمنين أنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ولست أدري كيف نكون غداً، وما القوم الذين كلموك بأحمد لأهل العراق مني ولا بأرذل لأهل الشام مني فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق منهم وقد أحب الله البقيا)[2].

وعندما أوشك جيش الامام على النصر وأيقن معاوية بالهزيمة دعا أهل الشام إلى رفع المصاحف وصاحوا: لا ترد كتاب الله يا أبا الحسن، فإنك أولى به منا وأحق من أخذ به، فأقبل الأشعث في أناس كثير من أهل اليمن فقالوا لعلي: لا ترد ما دعاك القوم إليه، قد أنصفك القوم، والله لئن لم تقبل هذا منهم لا وفاء معك ولا نرمي معك بسهم ولا حجر ولا نقف معك موقفاً)[3].

الملاحظ من جملة ما تقدَّم أنَّ هناك جانب ضعف في موقف الأشعث، فتارة هو ينصح ثقاته باللحوق بالشام، وتارة يميل مع دعوة رفع المصاحف والتحكيم، بل ويضغط على الامام علي عليه السلام من خلال موقعه ووجاهته للقبول بخيارات معاوية، وقد أدرك معاوية هذه النقطة فدعا أخاهُ عتبة بن أبي سفيان وقال له: ألن إلى الأشعث كلاماً فإنه إن رَضيَ بالصلح رضيت به العامة، فخرج عتبة حتى إذا وقف

---

(١) وقعة صفين، ص١٣٧.

(٢) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج١، ص١٤٥.

(٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج١، ص١٤٦.

بين الصفين نادى الأشعث فأتاه، فقال عتبة: (أيها الرجل، إن معاوية لو كان لاقياً أحداً غيرك وغير عليّ لقيك، إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل ولستَ كأصحابك أما الأشتر فقتل عثمان، وأما عديّ فحرَّض وأما سعد بن قيس فقلَّد علياً دينه... وإنَّا لا ندعوك إلى ما لا يكون فيك من تركك علياً ولا نصرة معاوية، ولكنَّا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحُك وصلاحنا)(١).

إيفاد معاوية أخوه عتبة إلى الأشعث كان بمثابة محاولة لفتح ثغرة للنفوذ إلى جيش الامام علي عليه السلام بعد أن رأى معاوية أن النصر في جهة الامام، فبحث عن موضع رخو لينفذ منه، فبدأ بمغازلة الأشعث ومخاطبته بأنه رأس أهل العراق، وقد استشفَّ معاوية من جواب الأشعث أنه يميل الى البقاء والجنوح إلى السلم، وقد تجسَّد ذلك في تأييده لوقف القتال والتحكيم حين رفع القوم المصاحف، ولم يكن هذا إلاَّ خُدْعة أُرِيدَ بها تضييع النصر على جيش الامام والتقاط الأنفاس ومحاولة للالتفاف وتحويل الهزيمة العسكرية لمعاوية إلى نصر سياسي من خلال التحكيم، وكان للأشعث الدور الكبير في الضغط على الامام والخلَّص من أصحابه الذين أيقنوا أن مسألة رفع المصاحف لم تكن إلاَّ خُدعة أراد بها معاوية وعمرو

---

(١) ابن قتيبة، الامامة والسياسة.

النجاة، ولمِ يكتفِ الأشعث بإجبار الامام على قبول التحكيم بل وفرض الحَكَم في شخص أبي موسى الأشعري الذي لم يكن مَرضياً للامام، وذلك حين قال علي عليه السلام: إني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه، فقال الأشعث ويزيد بن حصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القرَّاء: لا نرضى إلاَّ به؛ فإنه قد حذَّرنا ما وقعنا فيه، فقال علي عليه السلام: فإنه ليس لي برضى وقد فارقني وخذَّل الناس عني ثم هرب حتى أمنته بعد أشهر[1]... وكانت النتيجة فرض شخص أبي موسى الأشعري.

يقول محسن الأمين: [ليس العجب من الأشعث إذا ظهرت ذات نفسه لعلي عليه السلام وجابهه بهذا القول في الأشتر (حيث قال الأشعث في الأشتر حين أراد عليٌّ تحكيمه: وهل سعّر الأرض علينا غير الأشتر وهل نحن إلاَّ في حكم الأشتر. قال: وما حكمه؟ قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد) وتمسَّك بهذه الأعذار الواهية في اختيار أبي موسى لأن الأشعث كان منطوياً على غش أمير المؤمنين عليه السلام ولما رأى اختلاف الكلمة أظهر ذات نفسه وجابهه بما جابهه به][2].

بعد قتال الامام علي عليه السلام أهل النهروان كاتب معاوية وجوه

(١) أعيان الشيعة/ حسن الأمين، ج١، ص٥١٢.
(٢) أعيان الشيعة، ج١، ص٥١٣.

من معه مثل الأشعث بن قيس وغيره فوعدهم ومنَّاهم وبذل لهم، حتى مالوا إليه وتثاقلوا عن المسير مع علي عليه السلام فكان يقول فلا يُلتَفت إلى قوله ويدعو، فلا يُسمَع لدعوته فكان معاوية يقول: لقد حاربت علياً بعد صفين بغير جيش أو عناء[1].

كان الأشعث بن قيس في أيام أمير المؤمنين عليه السلام رأس المنافقين، وقد قال محمد عبدة:

كان الأشعث في أصحاب علي عليه السلام كعبد الله بن أبي سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل منهما رأس النفاق في زمنه.

وقد ذمَّه الامام علي عليه السلام كثيراً كما ورد في نهج البلاغة[2] ولم يكتفِ الأشعث بالكيد لأمير المؤمنين والنفاق والميل لمعاوية، وتحويل النصر في صفين إلى هزيمة من خلال التحكيم، بل كان على علم بما دبَّر ابن ملجم من مخطط لاغتيال الامام عليّ عليه السلام حيث يروي محسن الأمين:

(وقد كان ابن ملجم ومن معه قد ألقوا إلى الأشعث ما في نفوسهم من العزيمة على قتل أمير المؤمنين وأوطأهم على ذلك وحضر الأشعث في تلك الليلة لمعونتهم وسُمِع في الليلة التي ضُرِب

(١) البلاذري، ج٢، ص٣٨٣.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج، ج١، ص٥٦.

بها أمير المؤمنين يقول لابن ملجم: النجاء النجاء لحاجتك فقد فضحك الصبح)[1].

ويقول البلاذري: قالوا: لم يزل ابن ملجم تلك الليلة عند الأشعث بن قيس يناجيه حتى قال له الأشعث: قم فقد فضحك الصبح وسمع ذلك من قول حجر بن عدي الكندي، فلما قُتِل علي قال له حجر: يا أعور أنت قتلته[2].

بعد مبايعة الحسن عليه السلام كان الأشعث من المعاصرين له في الكوفة وممن بعث إليهم معاوية يمنيهم بقيادة جند من أجناده أو تزويج إحدى بناته أو بمئة ألف درهم إن هم قتلوا الحسن عليه السلام وقد بلغ الحسن عليه السلام ذلك فاستلام (لبس لامة حربه) فكان لا يتقدم للصلاة إلاَّ وعليه وقاية[3].

وقد ذكر المفيد: وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة في السر واستحثُّوه على المسير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن إليه عند دنوهم من عسكره وبلغ الحسن ذلك[4].

كانت وفاة الأشعث في الكوفة في زمان الحسن بن

(١) أعيان الشيعة، ج١، ص٥٣١.
(٢) البلاذري، ج٢، ص٤٩٣.
(٣) حياة الحسن/ القرشي، ج٢، ص٩٩ ـ ١٠٠.
(٤) أعيان الشيعة، ج١، ص٥٦٩ ـ الصدوق في العلل.

علـي عليه السلام وصلّـى هـو عليـه حيـث كـانـت إبنتـه جعـدة تحـت الحسن عليه السلام[1].

جعدة بنت الأشعث:

اختلف المؤرخون في إسمها فقيل سكينة وقيل شعثاء وقيل عائشة، والأصح أنها جعدة حسب ما ذكر أكثر المؤرخين[2]، وسبب زواج الحسن بها؛ أن أمير المؤمنين عليه السلام خطب من سعيد بن قيس الهمداني ابنته أم عران لولده الحسن فقال له سعيد: أمهلني يا أمير المؤمنين حتى أستشير، ثم خرج من عنده فلقيه الأشعث فسأله عن مجيئه فأخبره بالأمر فقال له هذا المنافق مخادعاً: كيف تزوج الحسن وهو يفتخر عليها ولا ينصفها ويسيء اليها فيقول لها: أنا ابن رسول الله، وابن أمير المؤمنين وليس لها هذا الفضل ولكن هل لك في ابن عمها فهي له وهو لها.

فقال له: ومن ذلك؟

قال: محمد بن الأشعث.

فانخدع سعيد بن قيس الهمداني من مقالته وقال: قد زوجته من ابنتي.

(١) تاريخ الكوفة ـ البراق، ص٤٠٠.
(٢) مقاتل الطالبيين، ص٣٣.

وأخذ الأشعث يشتد نحو أمير المؤمنين فقال له: خطبت إلى الحسن ابنة سعيد؟

قال: نعم.

قال الأشعث: فهل لك في أشرف منها بيتاً وأكرم منها حسباً وأتم منها جمالاً وأكثر منها مالاً؟

قال: ومن هي؟

قال: جعدة بنت الأشعث بن قيس.

قال: قد قاولنا رجلاً ـ يعني سعيد الهمداني ـ.

قال: ليس إلى ذلك الذي قاولته من سبيل.

قال: إنه فارقني ليستشير امها.

قال: قد زوجها من محمد بن الأشعث.

قال: متى؟

قال: قبل أن آتيك.

فوافق أمير المؤمنين، ولما فهم سعيد باغراء الأشعث ومخادعته له أقبل نحوه يشتد فقال له: يا أعور خدعتني!! فقال له الأشعث: أنت أعور خبيث، حيث تستشير في ابن رسول الله ألست أحمق؟

وأقبل الأشعث إلى الامام الحسن عليه السلام فقال له: يا أبا محمد ألا تزور أهلك؟ مستعجلاً في الأمر خوفاً من فواته، ثم إنه فرش

أبسطة من باب بيته إلى بيت الحسن عليه السلام وزفَّ ابنته إليه[1]، بهذه الصورة كان زواج الحسن عليه السلام بجعدة.

ولما أراد معاوية توطئة الأمور ليزيد رأى عدم إمكانية ذلك بوجود الامام الحسن عليه السلام ففكر بالسم وهو سلاحه الذي يستعمله مع مناوئيه، قال أبو الفرج: وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص فدسَّ إليهما سماً فماتا منه.

وقد كان ذلك بأن أرسل إلى ابنة الأشعث إني مزوجك بيزيد إبني على أن تُسِمِّي الحسن، وبعث اليها بمائة الف درهم[2].. وقد قال لها الامام عليه السلام بعد أن سمَّته: (يا عدوة الله قتلتني، قتلكِ الله، والله لا تصيبين مني خلفاً، ولقد غرَّكِ ـ يعني معاوية ـ وسخر منك يخزيك الله ويخزيه)[3].

وقد وفى لها معاوية بالمال ولم يزوجها من يزيد وقال لها: أخشى أن تصنعي بابني ما صنعتِ بابن رسول الله صلى الله عليه وآله[4].

ويذكر المسعودي أن معاوية لم يفِ لها بالزواج من يزيد حين

---

(١) حياة الحسن/ القرشي، ج٢، ص٤٥٩ ـ الأذكياء لابن الجوزي، ص٢٧.
(٢) أعيان الشيعة، ج١، ص٥٧٦.
(٣) تحف العقول، ص٤٩١.
(٤) أعيان الشيعة، ج٦، ص٥٧٦ عن المدائني.

طلبت منه ذلك، فقد ردَّها بسخرية واستهزاء قائلاً: إنا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه[1].

وقد خلف عليها بعد الحسن عليه السلام رجل من آل طلحة فأولدها فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيَّروهم وقالوا: يا بني مُسمَّة الأزواج[2].

ومما تقدَّم يظهر أنَّ جعدة قد ورثت الغدر والخيانة من أبيها فحيث قد غدر الأشعث بالامام علي عليه السلام وابنه الحسن عليه السلام فقد غدرت هي بزوجها الحسن عليه السلام ويضاف إلى ذلك ما كانت تعانيه من العُقد النفسية بسبب عدم إنجابها من الحسن عليه السلام..

وقد أشار الامام الصادق عليه السلام إلى هذه العائلة الغادرة بقوله: «إن الأشعث شرك في دم أمير المؤمنين، وابنته جعدة سمَّت الحسن، وابنه شرك في دم الحسين عليه السلام»[3].

* * *

لسلالة الأشعث بقية فلولديه محمد بن الأشعث وقيس بن الأشعث دورٌ في الغدر بآل البيت، فكان للأول دور مع رسول

---

(١) مروج الذهب، ج٢، ص٣٠٣.
(٢) أعيان الشيعة، ج١، ص٥٧٦.
(٣) أعيان الشيعة، ج١، ص٥٧٦.

الحسين مسلم بن عقيل وكان للثاني دور مع سبط الرسول الحسين عليه السلام يأتي ذكره.

دور الكوفة مع الحسين عليه السلام:

بعد استشهاد الحسن عليه السلام لم ير الحسين عليه السلام كإمام أن يواجه معاوية عسكرياً إمَّا لأنه قد بايع وتعاهد معه في وثيقة صلح توجب عليه الالتزام ببنودها، وقد يقول القائل: لماذا يلتزم الحسين عليه السلام ببنودها بعد أن تمَّ نقضها من قِبَل معاوية بملاحقته للشيعة في كل مكان وقتلهم وسب علي عليه السلام على المنابر وغيرها من الانتهاكات للشريعة المقدسة، أو لأنَّ الحسين عليه السلام لم يختر المواجهة في زمن معاوية لأنَّها ستبوء بالفشل، لذا كان يأمر الشيعة بالإخلاد إلى السكون إلى أن تنقضي ولاية معاوية، فكان يقول: [ليكن كل منكم حلساً من أحلاس داره]، وهذا يعني أنه رأى أن المواجهة في زمن معاوية لا تحقق الهدف المرجو منها وستبوء بالفشل، ولكن في أواخر أيام معاوية وعندما بدأ يُمهّد لاستخلاف يزيد المتهم في دينه والمجاهر بفسقه لم يرَ الحسين عليه السلام وبعض أولاد الصحابة القبول بذلك، لذا وصَّى معاوية يزيد بأن يشدد على أخذ البيعة من الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، فكان أول بيان يصدر من يزيد إلى عامله في المدينة هو أخذ البيعة من هؤلاء، وهنا لم يجد الحسين عليه السلام بُدّاً من

المعارضة وعدم إعطاء البيعة، وحين رأى أنه محاطٌ بالخطر خرج من المدينة إلى مكة لأنها بلد آمن وهي موسم تلتقي فيه الحجاج من مختلف الأمصار، فانتقلت الأخبار الى مختلف الأمصار عن رفض السبط لمبايعة يزيد.

إستبشر أهل الكوفة بموقف الامام لأن هذه المدينة قد عانت الكثير من سياسة معاوية وبطش زياد، لذا بدأت بالتخطيط لدعوة الامام إلى الكوفة والخروج معه بوجه يزيد؛ هذا الموقف السريع يعكس ما تنطوي عليه هذه المدينة من الولاء لآل البيت والبغض لمعاوية ويزيد لما أصابها من البلاء والتجويع ومطاردة الموالين لعلي عليه السلام وقتل بعضهم وحبس الآخرين وتشريدهم، فكانت تلهث وراء الخلاص، فما أن رأت تباشير ذلك برفض الحسين لبيعة يزيد حتى اجتمع وجهاؤها في منزل سليمان بن صُرَّد الخزاعي الذي قال لهم:

[وأنتم شيعته وشيعة أبيه فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغروا الرجل من نفسه].

قالوا: لا بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه.

قال: فاكتبوا إليه، فكتبوا إليه][1].

---

(١) الطبري، ج٥، ص٣٥٢.

بدأت كتب أهل الكوفة تتوالى على الحسين إلى أن وصلت حداً وضع الامام عليه السلام أمام مسؤوليته الشرعية لقيام الحجة بوجود الناصر، فبعث مسلم بن عقيل ليستقصي الأمور ويفحص مدى مصداقية الحال.

في الكوفة اجتمع الشيعة والموالون إلى مسلم حيث كان النعمان بن بشير والياً ليزيد على الكوفة وكان رجُلاً مسالماً يحب العافية، وهذا ما شجَّع أهل الكوفة على إظهار كوامن أعماقهم من الولاء للحسين عليه السلام والبغض ليزيد، وعلى ضوء ذلك بايع لمسلم أكثر من (٢٠,٠٠٠) من أهل الكوفة فبعث مسلم بكتاب إلى الامام يؤكد له كتب أهل الكوفة السابقة، ولكن هل بقي الحال هكذا؟ هناك من أرسل ليزيد يُحذره من تفاقم الوضع في الكوفة وضعف النعمان بن بشير عن ضبط أمور المصر فولى عبيد الله بن زياد على الكوفة وكان والياً على البصرة.

ولمعرفة أسباب انقلاب المواقف لا بد من الإلمام ولو بشيء يسير عن شخصية الوالي عبيد الله بن زياد.

عبيد الله بن زياد:

هو عبيد الله بن زياد بن أبيه أو ابن زياد بن سمية الذي استلحقه معاوية بأبيه (أبي سفيان) ليخلصَ له وده، وقد كشف هذا الاستلحاق فضيحة الزنى التي قارفها أبو سفيان، والخروج على القانون

الاسلامي الذي يدعو أن الولد للفراش وللعاهر الحجر.

أم عبيد الله هي مرجانة المجوسية التي عُرفت بالبغي أيضاً وقد طلَّقها زياد فتزوَّج بها شيرويه الاسواري وقد نشأَ عبيد الله بن زياد في بيت شيرويه وهذا ما يُفسّر لنا اللكنة التي يحملها في لهجته فقد قال مرة: «إفتحوا سيوفكم»، يريد سلوا سيوفكم، فقال يزيد بن مفرغ:

ويومَ فتحت سيفكَ من بعيدٍ
أضعت وكل أمرك للضياع[1]

وقد تعرَّض عبيد الله بن زياد للتعيير بنسبه كما يروي الجاحظ: قال عبيد الله بن ظبيان التيمي: يرحم الله عمر بن الخطاب كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الزانيات وأبناء الزانيات، فقال عبيد الله بن زياد بن أبيه: يرحم الله عمر كان يقول: لم يَقُم جنين في بطنِ حمقاء تسعة أشهر إلاَّ خرج مائقاً[2].

وقد قَدِم على معاوية بعد موت أبيه في سنة ٥٤هـ فقال له معاوية: من استعمل أبوك على الكوفة والبصرة؟ فأخبرهُ، فقال: لو استعملك أبوك لاستعملتُك، فقال عبيد الله: أنشدك الله أن يقولها لي أحد بعدك، لو استعملك أبوك وعمك لاستعملتك، فولاَّه

(١) البيان والتبيين، ج٢، ص١٦٧. الأسوارة قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً كالأحامرة في الكوفة.
(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، ج٢، ص١٨٥.

خراسان[1] وكان عمره خمساً وعشرين سنة.

وفي سنة (٥٥هـ) ولأّه على البصرة وعزله سنة (٥٦هـ) عن خراسان فبقي على البصرة إلى سنة تسع وخمسين ثم عزل معاوية عبيد الله عن البصرة وأعاده إليها بعد أن رأى أن منزلة الأحنف الذي هو من كبار أشراف البصرة سيئة عند عبيد الله. الملاحظ أن معاوية قد خبر بواطن زياد وابنه وعلم أن نفسيهما تنطويان على شعور بالضعة والنقص نتيجة دناءة النسب وبجانبها الحب والحرص على الولاية والأمرة والجاه، وقد داوى هذا الجانب وعَرَف كيف يُخضعهما بحيث يستميتان في الاخلاص لملكه ولملك يزيد، لذا نلاحظ أن معاوية لم يستعمل ابن زياد بسهولة بل كان يشعره بعدم كفاءته الى درجة جعلته يتوسل إليه ليوليه منصباً ثم بعد أن ولأّه كان يعزله بسهولة ليزيد من إخلاصه وكفاءته في تدعيم الملك لبني أمية، فهو تارة يوليه خراسان ثم يعزله منها ثم يوليه البصرة ويعزله منها ثم يعيده إليها، كل ذلك كي يزرع في نفسه الخوف من فقدان الإمارة فيتفانى في الطاعة والاخلاص والولاء، لذا كان عبيد الله يقول: (نِعم الشيء الإمارة لولا قعقعة البرد والتشزن للخطب)[2].

---

(١) الكامل، ابن الأثير، ج٣، ص٤٩٨.

(٢) البيان والتبيين، ج١، ص١٣٤ ـ ١٣٥، البُرد: جمع بريد وإنما قال هذا لأن الوالي الأموي ربّما يأتيه البريد بما يحمل من خير أو شر وهنا نلاحظ هاجس الخوف والعزل عن الامارة يلاحقهم دائماً.

جاءت سنة (٦٠هـ) وفيها على حد قول البعض وفاة معاوية والبيعة ليزيد، كان لهذه البيعة الكثير من الرافضين نظراً لعدم أهلية يزيد لإمرة المؤمنين.. وقد حدث في هذه السنة أن كاتبت الكوفة الامام الحسين عليه السلام تدعوه للقدوم والمبايعة، وقد بعث الحسين عليه السلام رسوله مسلم بن عقيل للاطلاع على واقع الحال، وحين قَدِم مسلم إلى الكوفة بايعه أكثر من (٢٠,٠٠٠) من أهل الكوفة على الولاء والنصرة فبعث مسلم بكتاب إلى الامام يؤكد له مصداقية كتب أهل الكوفة، وكان عليها النعمان بن بشير، وكان رجلاً مسالماً يحب العافية، وهذا ما شجع أهل الكوفة على إظهار كوامن أعماقهم من الولاء للحسين عليه السلام والبغض ليزيد، ولكن لم تبق الأمور على هذا الحال فقد أرسل عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرميّ حليف بني أمية كتاباً يخبر يزيد فيه بقدوم مسلم ومبايعة الناس له ويقول له:

إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث اليها رجلاً قوياً ينفّذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك، فإن النعمان رجل ضعيف أو هو يتضعف. ثم كتب الى يزيد عُمارة بن الوليد بن عُقبة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص بنحو ذلك. فلما اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سرجون مولى معاوية فأقرأه الكتب واستشاره فيمن يوليه الكوفة (كان سرجون مستشاراً لمعاوية وهو نصراني) فأخرج عهد عبيد الله على

الكوفة وقال: هذا رأي معاوية، وقد أمر بهذا الكتاب.

أخذ يزيد برأي سرجون وجمع لعبيد الله البصرة والكوفة، بعد استلام عبيد الله للولاية على الكوفة وبعد ضمها إلى البصرة كان أول ما عمله هو ضرب عنق الرسول الذي حمل كتاب الحسين الى المنذر بن الجارود الذي سلَّمه الى ابن زياد لمخافة أن يكون دسيسة، وخطب عبيد الله بعد ذلك في أهل البصرة قائلاً:

[أما بعد، فوالله ما بي تُقرَن الصعبة وما يقعقع لي بالشنآن وإني لنكلٌ لمن عاداني وسلمٌ لمن سالمني.... فوالله لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا أو لا يكون فيكم مخالف ولا مشاق، وإني أنا ابن زياد أشبهته من بين من وطىء الحصى فلم ينتزعني شبه خالٍ ولا ابن عمّ][1].

وكان ابن زياد قد توجه ابن زياد إلى الكوفة مسرعاً ودخلها متلثماً وعليه عمامة سوداء وفي زي أهل الحجاز ليوهمهم أنه الحسين وكان الناس قد بلغهم إقبال الحسين عليه السلام فظنوا أنه هو فأخذ لا يمر على جماعة إلاَّ سلَّموا عليه وقالوا: مرحباً بك يابن رسول الله قدمت خير مقدم، فرأى من تباشيرهم بالحسين ما ساءه[2].

---

(١) الكامل، ابن الأثير، ج٢، ص٥٣٤ ـ ٥٣٦، دار إحياء التراث العربي.

(٢) أعيان الشيعة، ج١، ص٥٩٠.

وحين وصل خطبهم قائلاً: «أما بعد فإن أمير المؤمنين ولأّني مصركم وثغركم وفيئكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبعٌ فيكم أمره ومنفذٌ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالأخ الشفيق، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فليبق امرؤ على نفسه»[١].

ثم أنه أخذ العرفاء أخذاً شديداً وقال: «اكتبوا لي الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم إليَّ فبرىء، ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا ما في عرافته أن لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغٍ، فمن لم يفعل فبرئت منه الذمة وحلالٌ لنا دمه وماله، وأيما عريف وجد في عرافته من بُغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يرفعه إلينا صُلب على باب داره وألغيت تلك العرافة من العطاء وسُيّر إلى موضع بعُمان الزارة»[٢].

سمع مسلم بمقالة عبيد الله فخرج من دار المختار وأتى دار هانىء بن عروة المرادي (أدرك النبي ﷺ وصحبه ومن أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام شارك في حرب الجمل وصفين والنهروان ومن

---

(١) الكامل، ج٢، ص٥٣٦.

(٢) الكامل، ج٢، ص٥٣٧.

أركان حركة حجر بن عدي الكندي ضد زياد).

إن عبيد الله بن زياد لم يقدم بجيش ولا سلاح إنما كان سلاحه المكيدة والدهاء والحرب النفسية والتهديد والشدة الذي تجلى في خطبه، هذا إذا علمنا أنه كان خبيراً بأهل الكوفة وقد وَرِث هذه الخبرة من أبيه فعَلِم أن الموقف العام يتسم بالبساطة والتسرُّع ونفوس العامة تنطوي على الولاء والتشيع ولكن صفة هذا الولاء عند البعض أنه غير متجذر، لذا يهتز تحت سياط الارهاب والبطش. وقد جسَّد عبيد الله البطش والتهديد في خطبته حين وصوله الكوفة وجسَّد الدهاء في دخوله ملثماً دخل بزي الحسين ليضمن سلامة الوصول الى القصر ثم يعمل على تقويض وتهديم ما جمعه مسلم من الحشود الموالية للحسين، وكخطة للتسلل إلى داخل هذه الحشود الموالية للحسين والمناوئة ليزيد عمد ابن زياد إلى أسلوب الدسيسة والتجسس، فدسَّ مولاه معقلاً وأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له: اطلب مسلم بن عقيل وأصحابه والقهم وأعطهم هذا المال وأعلمهم أنَّك منهم واعلم أخبارهم[1]. وقد نجح معقل في التغلغل ومعرفة مكان مسلم وأخبر بذلك ابن زياد فاستدعى هانئاً بأن بعث له محمداً بن الأشعث وحسان بن أسماء بن خارجة وعمرو بن الحجاج الزبيدي طالباً منهم إبلاغ هانىء بأن لا يدع ما عليه من حقه وكرهه أن يفسد عنده مثل

(١) الكامل، ج٢، ص٥٣٧.

هاني من الأشراف. وعندما ذهب هؤلاء الى هانىء وأقسموا عليه أن يذهب، ولم يكن حسان يعلم بما يضمره ابن زياد لهانىء ولكن محمد بن الأشعث كان عالماً، لذا فما أن دخل بادره زياد قائلاً:

أريــــدُ حيــــاتـــه ويُــــريـــد قتلـــي
عُــذيــرك مــن خليلــك مــن مــرادِ[1]

ثم واجه عبيد الله بن زياد هانئاً بما يعلم من إيوائه لمسلم في داره ودعا له مولاه معقلاً، وطلب منه تسليم مسلم فأبى هانىء ورفض تسليم مسلم، فهدده ابن زياد بالقتل ثم ضرب أنفه وجبينه وحزه بالقضيب حتى كسِر أنفه وسيّل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ثم أُمر به فأُلقي في بيت وأغلق عليه الباب فاعترض أسماء بن خارجة قائلاً لابن زياد: أرسله يا غادر أمرتنا أن نجيئك بالرجل فلما أتيناك به هشمت وجهه وسيَّلت دماءه وزعمت أنك تقتله فأمر به عبيد الله فلُهز وتُعتِع ثم تُرِك فجلس، أما ابن الأشعث فقال: رضينا بما رأى الأمير لنا كان أو علينا.

ولما بلغ عمرو بن الحجاج أن هانئاً قد قُتل أَقبل في مذحج حتى أحاطوا بالقصر ونادى: أنا عمرو بن الحجاج، هذه فرسان مذحج ووجوهها، لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة، فقال عبيد الله لشريح القاضي: أدخل على صاحبهم فانظر إليه ثم اخرج اليهم

(١) الكامل، ج٢، ص٥٣٩.

فأعلمهم أنه حيّ، ففعل شريح، فلما دخل عليه قال له هانىء: يا للمسلمين! أهلكت عشيرتي؟ أين أهل الدين؟ أين أهل النصر؟ أيخلونني وعدوهم وابن عدوهم! وسمع الضجة فقال: يا شريح إني لأظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين، إنه إن دخل عليَّ عشرة نفر أنقذوني، فخرج شُرَيح ومعه عين أرسله ابن زياد، قال شريح: لولا مكان العين لأبلغتهم قول هانىء. فلما خرج شريح اليهم قال: قد نظرت صاحبكم وأنه حيّ لم يُقتل، فقال عمرو وأصحابه: [فأمَّا] إذ لم يقتل فالحمد لله! ثم انصرفوا وأتى مسلم الخبر فنادى في أصحابه: يا منصور أمت! وكان شعارهم، وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله في الدور أربعة آلاف، فاجتمع اليه ناس كثير. . . وأقبل نحو القصر، فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرز في القصر وأغلق الباب وأحاط مسلم بالقصر وامتلأ المسجد والسوق من الناس وما زالوا يجتمعون حتى المساء وضاق بعبيد الله أمره وليس معه في القصر إلاَّ ثلاثون رجلاً من الشُرَط وعشرون رجلاً من الأشراف وأهل بيته ومواليه. وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد ومن قِبَل الباب الذي يلي دار الروميّين والناس يسبون ابن زياد وأباه. فدعا ابن زياد كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج فيسير ويخذّل الناس عن ابن عقيل ويؤمنهم، وأمر محمداً بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت فيرفع رأيه الأمان لمن جاءه من الناس.

وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذُهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن أبجر العجلي وشمر بن ذي الجوشن الضبابي، وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم لقلة من معه، وخرج أولئك النفر يخذّلون الناس. وأمر عبيد الله من عنده من الأشراف أن يُشرفوا على الناس من القصر فيُمنّوا أهل الطاعة ويخوّفوا أهل المعصية، ففعلوا، فلما سمع الناس مقالة أشرافهم أخذوا يتفرقون حتى أن المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول: إنصرف الناس يكفونك، ويفعل الرجل مثل ذلك فما زالوا يتفرقون حتى بقي ابن عقيل في المسجد في ثلاثين رجلاً.

فلما رأى مسلم ذلك خرج متوجهاً نحو أبواب كندة فلما خرج إلى الباب لم يبق معه أحد، فمضى في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب فانتهى الى باب امرأة من كندة يقال لها طَوعة أم ولد كانت للأشعث وأعتقها، فتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالاً.... (أدخلت طوعة مسلم الدار بعد أن عرفت بخذلان أهل الكوفة له) وجاء ابنها فرآها تُكثر الدخول في ذلك البيت فقال لها: إن لك شيئاً في ذلك البيت، وسألها فلم تخبره فألحَّ عليها فأخبرته واستكتمته وأخذت عليه الايمان بذلك فسكت.

أما ابن زياد فحين علم بتفرق القوم نزل الى المسجد قبيل العتمة وأمر فنودي: «أن برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء

والمناكب والمقاتلة صلى العتمة إلاَّ في المسجد، فامتلأ المسجد، فصلى بالناس ثم قام فحمد الله ثم قال: أما بعد فان ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشقاق فبرئت الذمة من رجل وجدناه في داره، ومن أتانا به فله ديته»[١].

وأمر الحصين بن تميم أن يمسك أبواب السكك ثم يفتش الدور، وكان على الشُرط وهو من بني تميم، أما بلال بن طوعة فلما أصبح أتى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأخبره بمكان ابن عقيل فأتى عبد الرحمن أباه وهو عند ابن زياد فأسرَّ إليه بذلك فأخبر به محمد ابن زياد فقال له ابن زياد: قم فأتني به الساعة.

محمد بن الأشعث وريث أبيه في الغدر:

لقد كان للأشعث كما ورد علينا سابقاً دور مبرز مع أمير المؤمنين علي عليه السلام وابنه الحسن عليه السلام ولقد رأينا أن للأشعث نصيباً كبيراً في معركة صفين وفي جيش الحسن في المدائن، ونلاحظ هنا أن صفة الغدر في هذه العائلة تكاد تكون متأصلة وتجلّى ذلك في شخصية محمد بن الأشعث وريث أبيه، فهو قد استدرج هانياً الى قصر ابن زياد وهو يعلم بما يضمرهُ له وحين اعترض أسماء بن خارجة على فعل ابن زياد مع هاني قال: رضينا بما رأى الأمير لنا أم علينا.

---

(١) الكامل، ج٢، ص٥٤١.

ونراهُ الآن مع مسلم، فحين أخبره ابنه عبد الرحمن بايواء طوعة لمسلم لم يتصرف على ضوء كتابه الذي دعا فيه الحسين الى القدوم وإنما أخبر ابن زياد بمكانه، ولم يكتف بذلك بل حينما أمره ابن زياد باحضاره مع سبعين من قيس، وحين خرج اليهم مسلم بالسيف فقاتلهم في السكة فقال له محمد بن الأشعث: لك الأمان فلا تقتل نفسك، وحين أحسَّ أن مسلماً يتوجس منهم الكذب والخديعة قال له محمد بن الأشعث: إنك لا تُكذب ولا تُخدع، القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك.

وحين أحضر محمد مسلماً الى القصر وأخبر ابن زياد بذلك وأمانه له قال له عبيد الله: ما أنت والأمان! ما أرسلناك لتؤمنه إنا أرسلناك لتأتينا به! فسكت محمد[1].

وكانت نهاية مسلم وهاني حيث أمر ابن زياد بمسلم أن يُصعد فوق القصر لتُضرب عنقه ويُرمى من أعلاه.

وأمر ابن زياد بهانيء حين قُتِل مسلم فأُخرج إلى السوق فضُربت عنقه، وكان عمره آنذاك (٩٠ سنة) وبعث برأسيهما إلى يزيد، فكتب يزيد إلى ابن زياد يشكره ويقول له: ضع المراصد والمسالح واحترس واحبس على التهمة وخُذ على الظنّة.

* * *

---

(١) الكامل، ج٢، ص٥٤٥.

قد يتساءل المرء إذن لماذا كاتب محمد بن الأشعث (وشبث بن ربعي وحجار بن أبجر والقعقاع بن شور الامام الحسين عليه السلام؟) لو راجعنا تواريخ الكتب التي أُرسلت للحسين لرأينا أن أول الكتب قد وصلت من سليمان بن صُرَد الخزاعي والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر ثم كتبوا له كتاباً آخر وسيروه بعد ليلتين من الكتاب الأول، فكتب الناس معه نحواً من مائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا رسولاً ثالثاً يحثونه على المسير اليهم، ثم كتب اليه شبث بن ربعي وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث وغيرهم من أعيان الكوفة ووجوهها[١]، والملاحظ أن هؤلاء حين رأوا اجتماع أهل الكوفة الى دعوة الحسين بادروا الى تأييد هذا الاجتماع تحسباً للمستقبل وخوفاً من مسير الأمور باتجاه انتقال الكوفة من سلطة بني أمية إلى أهل البيت، وحيث أن أكثر هؤلاء هم أشخاص انتهازيون تُبنى مواقفهم على أساس المصالح المادية والشخصية وقد رأينا ذلك حين اشتراهم معاوية بالاغراء بالمال والمناصب فهؤلاء حريصون كل الحرص على الامتيازات والجاه ولا يحكمهم مبدأ أو حق، فلا نستغرب والحال هذا إن انقلب سلوكهم من مكاتبة الحسين ودعوته إلى قتاله ومناصرة أعدائه.

---

(١) الكامل، ج٢، ص٥٣٤، أعيان الشيعة، ج١، ص٥٨٩.

هل خذل مسلم جميع من بايعه؟

كان بعض من بايع مسلم بن عقيل قد تحرك ليلحق به حين جمع مسلم أهل الكوفة حول قصر الأمارة عندما اعتقل عبيد الله بن زياد هانىء بن عروة المرادي، وكان ممن التحق بهذه الجموع:

١ ـ **عبد الأعلى بن يزيد الكلبي**: وهو شاب كوفي لبس سلاحه حين أعلن مسلم تحركه، فقبض عليه كثير بن شهاب الحارثي [وكان قد استجاب لعبيد الله بن زياد حين أمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج فيخذل الناس عن مسلم بن عقيل)، فأخذه الى ابن زياد فقال عبد الأعلى له: إنما أردتك فلم يصدقه وأمر به فحُبس(١)، ثم إن ابن زياد دعا بعبد الأعلى الكلبي بعد أن قتل مسلماً وهانئاً فأُتي به فقال له: أخبرني بأمرك؟ فقال: أصلحك الله خرجتُ لأنظر ما يصنع الناس فأخذني كثير بن شهاب.

فقال له: فعليك وعليك الايمان المغلظة إن كان أخرجك إلاَّ ما زعمت، فأبى أن يحلف.

فقال عبيد الله: إنطلقوا بهذا إلى جبانة السبع فاضربوا عنقه بها فانطلقوا به فضُربت عنقه(٢).

---

(١) الطبري، ج٥، ص٣٧٩.
(٢) الطبري، ج٥، ص٣٧٩.

٢ ـ **عمارة بن صلخب الأزدي**: خرج هذا الشاب الكوفي لنصرة مسلم حين بدأ تحركه، فقُبض عليه وحُبس ثم دعا به عبيد الله بن زياد بعد أن قُتِل مسلم وهانىء فقال له: ممن أنت؟

قال: من الازد.

قال: انطلقوا به الى قومه، فضُربت عنقه فيهم[١].

٣ ـ **قيس بن مسهر الصيداوي (من بني أسد)**: من أشراف بني أسد وهو أحد من حمل رسائل الكوفيين الى الحسين عليه السلام بعد إعلانه الرفض لبيعة يزيد وخروجه إلى مكة. صحب رسول الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل الى الكوفة وحمل رسالة مسلم الى الحسين عليه السلام يخبره فيها ببيعة من بايع ويدعوه إلى القدوم، ثم صحب الحسين عليه السلام حين خرج من مكة متوجهاً الى العراق حتى إذا انتهى الحسين الى الحاجز من بطن الرمة حمل رسالة من الحسين الى الكوفيين يخبرهم فيها بقدومه عليهم. قبض عليه الحصين بن نمير فأتلف قيس الرسالة وجاء به الحصين الى ابن زياد الذي حاول أن يعرف منه أسماء الرجال الذين أرسل اليهم الحسين كتابه، فأمر به عبيد الله فرُمي من أعلى القصر فتقطع فمات[٢].

كان عبيد الله يرمي من وراء قتل هؤلاء إلى تأديب كل خارج

(١) الطبري، ج٥، ص٣٧٩.

(٢) الطبري، ج٥، ص٣٩٤.

عن طاعته وموالٍ لمسلم، وكل من يُفكر في نصرة الحسين.

٤ ـ **ميثم التمار**: كان ميثم عبداً لامرأة من بني أسد فاشتراه علي عليه السلام وأعتقه وقال له: ما اسمك؟ قال: سالم. قال: أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان اسمك الذي سمَّاك به أبواك في العجم ميثماً.

قال: صدق الله ورسوله وأمير المؤمنين والله إنه لإسمي.

قال: فارجع الى اسمك الذي سماك به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودع سالماً، فرجع ميثم واكتنى بأبي سالم.

فقال له علي عليه السلام ذات يوم: إنك تُؤخذ بعدي فتُصلب وتُطعن بحربة فاذا جاء اليوم الثالث ابتدر منخراك وفوك دماً فتخضب لحيتك وتُصلب على باب عمرو بن حريث عاشر عشرة وأنت أقصرهم خشبة... ثم أخذه عبيد الله بن زياد فأُدخل عليه فقيل له: هذا كان آثر الناس عند علي عليه السلام.

قال: ويحكم هذا الأعجمي؟

فقيل له: نعم.

فقال له: أين ربك؟

قال: بالمرصاد للظلمة وأنت منهم.

قال: إنك على أعجميتك لتبلغ الذي تريد، أخبرني ما الذي أخبر بك صاحبك إني فاعلٌ بك؟

قال: أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة وأنا أقصرهم خشبة وأقربهم الى المطهرة.

قال: لنخالفنه.

قال: كيف تخالفه والله ما أخبرني إلاَّ عن النبي ﷺ عن جبرئيل عن الله عز وجل، ولقد عرفت الموضع الذي أُصلب فيه وإني أول خلق الله ألجم في الاسلام، فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيد الثقفي.

وبعد شهادة مسلم وهانىء بيومين أو ثلاث قال ميثم للمختار: إنك ستفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين فتقتل هذا الذي يريد أن يقتلك، فلما أراد عبيد الله قتل المختار وصل البريد بتخليته وصلب ميثم على باب عمرو بن حريث وكان ذلك قبل قدوم الحسين بأيام.

الكوفة بعد قدوم الحسين عليه السلام إلى كربلاء:

لقد أصاب الشخصية الكوفية الاحباط والشلل وضعف الروح المعنوية بعد مقتل مسلم وهانىء وكل خارج لنصرة مسلم، وقد أيقظ هذا التصرف عقدة الخوف التي أنشأتها قسوة زياد بن أبيه وإرهابه، بل وان سلوكية عبيد الله أعادت إلى أذهان الكوفيين بطش زياد بأنصار أمير المؤمنين علي عليه السلام.

لقد فهم معاوية النفسية الكوفية وأدرك أنها قابلة للتخضيع والتطويع فما أن تجتث الشخصيات الرسالية حتى ينحني بقية القوم،

لذا فقد مُورسِت في الكوفة سياسة الصلب والقتل في الأماكن العامة وقطع الرؤوس ورفعها من بلدٍ إلى بلد بل وان ما نجح به معاوية في ترضيخ الكوفة علَّمه لابنه يزيد كي يوطىء له الأمور فعهِد إليه أن يُعين عبيد الله بن زياد على الكوفة الذي كان يسوس أهل العراق بنفس الأسلوب الذي مارسه والده في القسوة والوحشية والارهاب، وقد جعل عبيد الله أغلبية أهل الكوفة تتراجع عن نصرة الحسين وتتخاذل تحت أساليب التخويف والمكيدة والتذكير بملاحم أبيه ونكايته بالشيعة والموالين، لذا كانت المرأة تدعو أباها وأخاها وتقول له: إنصرف الناس يكفونك، أو انصرف جيش الشام قادم، يُضاف إلى هذا خيانة الأشراف الذين كانوا سناد عامل الكوفة، ومما يظهر أن التحرك الشعبي كان يتم من خلال رؤساء القبائل وممارستهم لتأثيراتهم في القبيلة، وهذا يعني أن الفرد المسلم لا يزال محكوماً بالولاء لقبيلته من جهة ومحكوماً بالولاء للدولة من خلال العطاء وتحكُّمها بالأرزاق، خصوصاً بعد أن أذاق معاوية أهل الكوفة الحرمان والانقاص في العطاء لولائها لعلي عليه السلام فبات التلويح بالحرمان من العطاء عامل ضغط على النفوس لمحاربتها بأرزاقها.

السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا يتجه أغلبية الأشراف ورؤساء القبائل إلى إسناد عامل الخليفة الأموي؟ بمعاينة هؤلاء الأشراف الذين كانوا وراء تدعيم النفوذ الأموي في الكوفة ابتداءً من قيس بن الأشعث في زمن الإمام علي عليه السلام إلى إبنه محمد بن

الأشعث إلى القعقاع بن شور إلى شبث بن ربعي التميمي وكثير بن شهاب الحارثي وحجار بن أبجر العجلي إلى غيرهم، فقد ارتبط هؤلاء بالسلطان الأموي لوجود قاسم مشترك ومصلحة هي الاحتفاظ بالسلطان والنفوذ الذي كانوا يتمتعون به في الجاهلية وغاب عنهم في الاسلام، لذا كان بنو أمية يشترون هؤلاء بالاغراء بالمناصب والمال مقابل ولائهم للدولة، بينما في دولة الاسلام الذي لم تنله يد التحريف والذي يجعل العدل والمساواة بين الأفراد ويكون التمايز على أساس التقوى والاستقامة بغض النظر عن الانتماء والنسب، فلا يقدر أمثال هؤلاء على تحقيق مآربهم، وعلى ضوء هذا الميزان سيفقد هؤلاء الأشراف الكثير من الامتيازات بل ويصبحوا إمَّا مغمورين أو منبوذين نتيجة لانحرافاتهم ومجانبتهم للصواب.

إن الكوفة بالمستوى العام قد خذلت الحسين نتيجة للعوامل النفسية المذكورة سابقاً مضافاً إلى سياسة عبيد الله التي ضيَّقت الخناق على أهل الكوفة بل وعبَّأت منهم جيشاً لمقاتلة الحسين عليه السلام. فقد أصدر ابن زياد بياناً جاء فيه:

[أيما رجل وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً عن العسكر برئت منه الذمة][1].

فكانت مهمة القعقاع بن سويد ملاحقة المتخلفين وتقديمهم

---

(١) البلاذري، ج٢، ص١٣٨.

الى ابن زياد فقبض هذا على رجلٍ من قبيلة همدان كان قد جاء الى الكوفة في طلب إرث أبيه، وقدَّمه إليه على أنه متخلف فضربوا عنقه فكان هذا عبرة للآخرين، ولكن مع هذا فإن قسماً من أهل الكوفة خرجوا منها كعبيد الله بن الحر الجعفي أو أخفوا أنفسهم أو هربوا في منتصف الطريق كما يروي البلاذري:

[وكان الرجل يُبعث في ألف فلا يصل إلاَّ في ثلاثمائة أو أربعمائة أو أقل من ذلك كراهية منهم لهذا الوجه][1].

إضافة إلى من سُجِنوا كالمختار، أو قُتِلوا كهانىء بن عروة المرادي الذين يمثلون وجوه القوم، وهناك من التحق بالامام كنافع بن هلال المرادي، وعمر بن خالد الصيداوي، وسعد من موالي عمر بن خالد، ومجمع بن عبد الله العائذي، والتحق بهم أخيراً مسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر وعلى رواية ابن سعد: [جعل الرجل والرجلان والثلاثة يتسللون الى الحسين من الكوفة]، وقسم من أهل الكوفة لم يكن على وعي وإدراك بالمسألة ولم يتصور القضية بهذه الجديَّة أو لم يكن على وعي بحقائق الأمور، فهذا الحر الرياحي مع منصبه العسكري لم يدرك خطورة الموقف بل لم يكن يعلم بمراسلة الكوفيين للامام إلاَّ عند جعجعته بالحسين عليه السلام في الطريق.

---

(١) البلاذري، ج٢، ص١٧٩.

عمليات الهروب من الجيش هي التي دفعت إبن زياد لنصب الكمائن ومراقبة الطرق للامساك بالمتسللين فوضع الحصين بن نمير لهذا الغرض.

مَنْ قاتَلَ واستُشهد مع الحسين عليه السلام في كربلاء من أهل الكوفة

لقد كانت دعوة الحسين عليه السلام لرفض حكم يزيد عامة ومن خلال موسم الحج، بل انه استغل هذه المناسبة ليُعلن رفضه لبيعة يزيد كما أنه قد قطع مراسم الحج وتوجه للعراق وكان يخطب في الطريق ويدعو كل من يراهُ إلى نصرته، ونستطيع القول أن المدينة الوحيدة التي كانت تحمل روح الثورة هي الكوفة بغض النظر عن النتائج، فمثلاً أهل البصرة حين وصلت رسائل الحسين عليه السلام إلى الأشراف أخفوا الأمر ولم تظهر منهم أي استجابة سوى المنذر بن جارود العبدي الذي أعطى الرسالة إلى ابن زياد لأنه اعتقد أن الأمر دسيسة منه، فضُربت عنق الرسول. أما الحجاز الذي خرج الحسين عليه السلام منه فقد نصحه الأغلبية بعدم الخروج ولو أحصينا من استُشهد مع الحسين عليه السلام نجد أن النسبة الكبرى هي من أهل الكوفة وربما تكون الحالة الثورية الموجودة في الكوفة نابعة من الوعي وتلقيها للتعاليم الاسلامية صافية من أمير المؤمنين علي عليه السلام.

كانت هناك نسبة من أصحاب الحسين الذين استُشهدوا معه من أهل الكوفة وهم:

١ ـ حبيب بن مظاهر الأسدي:

من خواص الإمام علي عليه السلام وحملة علومه الذين انقطعوا إليه وتتلمذوا على يديه وزعيم قبلية لا يُنافس في زعامة بني أسد، يُعد من الصحابة الذين شهدوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسمعوا حديثه، شَهِدَ حروب الامام علي عليه السلام وكان من شرطة الخميس، كان يأخذ البيعة للحسين عليه السلام وجعله الحسين قائداً على الميسرة، عمره خمس وسبعون سنة، وقد روي أنه بذل محاولة لاستقدام أنصار من بني أسد وحال الجيش الأموي دون وصولهم الى معسكر الحسين عليه السلام، يُعدُّ حبيب شخصية كوفية بارزة وكان مُعظَّماً عند الحسين عليه السلام وقد كتب إليه الحسين عليه السلام يدعوه حين عزم على الثورة:

(من الحسين بن علي بن ابي طالب إلى الرجل الفقيه حبيب بن مظاهر، أما بعد يا حبيب فأنت تعلم قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنت أعرف بنا من غيرك وأنت ذو شيمة وغيرة فلا تبخل علينا بنفسك، يجازيك جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة)[١].

وقد هدَّ مقتله حسيناً فقال عند ذلك: أحتسب نفسي وحماة أصحابي[٢] واسترجع كثيراً.

---

(١) أسرار الشهادة، ص٣٩٠، أصحاب الحسين، علي محمد علي دخيل.
(٢) الطبري، ج٥، ص٤٤٠.

٢ ـ مسلم بن عوسجة الأسدي:

من أصحاب رسول الله ﷺ له مواقف بطولية في الفتوح الاسلامية ومن عُبَّاد الكوفة وملازمي جامعها الأعظم، له دور كبير في حركة مسلم بن عقيل رضوان الله عليه وكان أحد أقطابها، وكان يأخذ البيعة للامام الحسين، عقد له مسلم بن عقيل على ربع مذحج وأسد حين بدأ تحركه نحو القصر، التحق بركب الحسين عليه السلام قبل مقتل مسلم بن عقيل بحيث كان الركب يسير في زبالة. أخرج الحسين عليه السلام للناس كتاباً فقرأ عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فانه قد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبد الله بن بقطر وقد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام، فتفرق الناس عنه تفرقاً فأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقي أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة[١]... وقال له أهله وتقدمهم العباس بالكلام: لِـمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً، ثم قام مسلم بن عوسجة فقال: أنحن نخلي عنك، ولم نعذر إلى الله في أداءِ حقك أمام الله لا أبرح حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك[٢].

---

(١) الطبري، ج٦، ص٢٦٦.

(٢) أبصار العين، ص٧٣.

واستشهد مع الحسين عليه السلام ومشى الى مصرعه وقال عليه السلام: رحمك الله يا مسلم ﴿منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلاً﴾[1].

وحين استبشر جيش عمر بن سعد بقتله قال لهم شبث بن ربعي (قائد ميمنة ابن سعد): ثكلتكم أمهاتكم! إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذللون أنفسكم لغيركم، تفرحون أن يُقتل مثل مسلم بن عوسجة؟! أما والذي أسلمت له لرُبَّ موقف له قد رأيته في المسلمين كريم، لقد رأيته يوم سلق (الأرض الصفصف) أذربيجان قتل ستة من المشركين قبل أن تتام خيول المسلمين. أفيقتل منكم مثله وتفرحون؟![2].

٣ ـ زهير بن القين البجلي:

من بجيلة، وهي إحدى القبائل اليمنية التي سكنت الكوفة، يُعدُّ زهير من شجعان المسلمين، اشترك في الفتوح الاسلامية ومن الخطباء المعدودين، كان ممن يتبنون فكرة مظلومية عثمان التي رفعها بعض كبار الصحابة الذين كانت لهم اليد الطُولى في إضرام النار ضد الخليفة والتحريض على قتله، وحين خرج الحسين من مكة في سنة (٦٠هـ) متجهاً إلى الكوفة كان هناك موكب آخر يسير بزعامة زهير بن القين مؤلف من نفر من البجليين والفزاريين، والظاهر أن موكب زهير

(١) مقتل الحسين(ع) للمقرم، ص٢٩٧.
(٢) الطبري، ج٦، ص٢٤٩.

كانوا مجانبين للحسين عليه السلام يكرهون مسايرته والنزول معه، حتى نزلوا في يوم في منزل لم يجدوا بُداً من النزول فيه، فنزل الحسين في جانب وموكب زهير في جانب آخر فدعا الحسين عليه السلام زهيراً وحين أتاه ما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدَّم وحُمل إلى الحسين ثم قال (لامرأته): أنت طالق، إلحقي بأهلك فإني لا أحب أن يصيبك من سببي إلاَّ خيراً، ثم قال لأصحابه: من أحبَّ منكم أن يتبعني وإلاَّ فإنه آخر العهد، وإني سأحدثكم حديثاً: غزونا بلنجر، ففتح الله علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الباهلي: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من المغانم؟ فقلنا: نعم. فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم، فأما أنا فإني أستودعكم الله[1].

وحين طلب الحسين من أصحابه الانصراف قال له زهير بن القين رحمة الله عليه: والله لوددت أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت حتى أُقتَل هكذا ألف مرة وإن الله عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

٤ ـ عابس بن أبي شبيب الشاكري:

من بطون همدان (أهل اليمن) ومن أسرة عُرفت بالبطولة والاقدام، كان شجاعاً خطيباً ناسكاً متهجداً وكان من أعظم الثوار

---

(١) الطبري، ج٦، ص٢٢٥.

إخلاصاً وحماسة، أرسله مسلم بن عقيل برسالة إلى الحسين يخبره فيها ببيعة أهل الكوفة ودعاه إلى القدوم، لازم الحسين عليه السلام في مكة وجاء معه الى كربلاء[1] وكان يقول في يوم عاشوراء: . . . فإن هذا اليوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر منه بكل ما قدرنا عليه.

٥ ـ عبد الله بن عمير الكلبي:

من بني عليم من قبائل اليمن، توجه من الكوفة إلى الحسين مع زوجته أم وهب بنت عبد بن النمر بن قاسط حين رأى ابن زياد يعرض الجند لارسالهم الى حرب الحسين، واستشهدت زوجته بعد قتله، وكان القتيل الثاني من أصحاب الحسين عليه السلام وهو مقاتل شديد المراس، من أعظم ثوار الكوفة حماسة[2].

٦ ـ وهب بن عبد الله الكلبي:

يرجح أنه ابن أم وهب زوجة عبد الله بن عمير بن جناب الكلبي، فقد قُتلت أمه وهي عند زوجها بعدما قتل[3].

٧ ـ عمر بن عبد الله (أبو ثمامة) الصائدي:

من قبيلة همدان وكان يقبض الأموال أيام مسلم في الكوفة ويشتري السلاح وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة، عقد له

---

(١) الطبري، ج٥، ص٣٧٥.

(٢) الطبري، ج٥، ص٤٢٩.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٠.

مسلم على ربع تميم وهمدان حين بدأ تحركه القصير الأجل ضد عبيد الله بن زياد[1].

٨ ـ أنس بن الحارث الكاهلي:

بنو كاهل من بني أسد، شيخ كبير السن ذا منزلة اجتماعية عالية بحكم كونه صحابياً[2].

٩ ـ الحر بن يزيد الرياحي:

من بني تميم، من أشراف العرب ووجوهها ومن شجعان المسلمين، وأحد الشخصيات الكوفية البارزة، كان أميراً في الجيش الأموي في كربلاء وهو يقود ربع تميم وهمدان، التقى مع الحسين عند جبل ذي حُسُم وهو يقود الف فارس وجهه عبيد الله بن زياد لاعتراض الحسين[3]. في يوم عاشوراء بعد أن خطب الحسين وأصحابه في الجيش أقبل الحر على ابن سعد قائلاً: أصلحك الله أمقاتل أنت هذا الرجل؟

فقال: أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي.

قال: فما لك في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا؟

فقال: أما والله لو كان الأمر لي لفعلت ولكن أميرك قد أبى.

---

(١) الطبري، ج٥، ص٣٦٤.

(٢) طبقات ابن سعد، ج٦، ص٥٨.

(٣) الطبري، ج٥، ص٤٢٢.

فقرر الحر عند ذلك الالتحاق بالحسين عليه السلام، فضرب فرسه صوب الحسين عليه السلام ودنا منهم وقلب ترسه فقالوا: مستأمن. وذكر ابن طاووس (رحمه الله): ثم ضرب فرسه قاصداً إلى الحسين عليه السلام ويده على رأسه وهو يقول: اللهم إليك تبتُ فتُب عليَّ فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك[1].

ثم قاتل معه حتى استُشهد وقد أبَّنه الحسين قائلاً: ما أخطأت أمك إذ سمتك حراً، أنت الحر في الدنيا والحر في الآخرة.

١٠ ـ الحلاس بن عمرو الراسبي:

ذُكر أنه كان على شرطة أمير المؤمنين علي عليه السلام في الكوفة وأنه وأخاه النعمان كانا مع عمر بن سعد ثم تحولا الى معسكر الحسين وهو من الازد من القبائل اليمنية التي استوطنت الكوفة[2].

١١ ـ شوذب مولى شاكر بن عبد الله الهمداني الشاكري:

كان من رجال الشيعة ووجوههم ومن أعظم الثوار إخلاصاً وحماسةً، وهو شيخ كبير من موالي همدان.

١٢ ـ الحجاج بن مسروق الجعفي:

نسبة إلى جعفي بن سعد من مذحج من القبائل اليمنية، خرج

---

(١) اللهوف، ص٤٣.

(٢) المناقب، ج٤، ص١١٣.

من الكوفة الى مكة، فلحق بالحسين في مكة وصحبه منها الى العراق، أمره الحسين بالأذان لصلاة الظهر عند اللقاء مع الحر بن يزيد، وُصف بأنه مؤذن الحسين عليه السلام.

١٣ ـ سعد بن عبد الله مولى عمرو بن خالد:

لحق بالحسين مع مولاه عمرو بن خالد الأسدي الصيداوي وآخرين فانتهوا إلى الحسين، وهو بعذيب الهجانات بعد لقائه مع الحر بن يزيد الرياحي وقبيل وصوله الى كربلاء، وقد أراد الحر منعهم من اللحاق بالحسين فلم يتمكن[١].

١٤ ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن الكُدَر الارحبي:

من حملة رسائل أهل الكوفة الى الحسين عليه السلام كان في الكوفة مع مسلم بن عقيل[٢]، قاتل مع الحسين عليه السلام واستُشهد معه.

١٥ ـ عبد الرحمن بن عبد ربه الانصاري الخزرجي:

هو من الشخصيات الكوفية البارزة، وكان ممن يأخذون البيعة للحسين عليه السلام في الكوفة[٣].

---

(١) الطبري، ج٥، ص٤٤٥.
(٢) الطبري، ج٥، ص٣٥٢.
(٣) الطبري، ج٥، ص٤٢٣.

١٦ ـ عبد الرحمن بن عروة بن حرّاق الغفاري:

كان جده حرّاق من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حارب معه في الجمل والنهروان وصفين ويعد من أشراف الكوفة، قاتل مع الحسين عليه السلام واستُشهد معه[١].

١٧ ـ عمار بن أبي سلامة الدالاني:

من قبائل همدان التي سكنت الكوفة، قاتل مع الحسين عليه السلام واستُشهد معه[٢].

١٨ ـ يزيد بن زياد بن مهاصر الكندي:

اضطرب كلام الطبري فيه، فمرة قال انه تحول الى الحسين عليه السلام من معسكر ابن زياد بعدما رفضوا عروض الحسين عليه السلام، ومرة قال انه خرج الى الحسين عليه السلام من الكوفة قبل أن يلاقيه الحر[٣].

١٩ ـ حنظلة بن أسعد الشبامي:

من همدان من قبائل اليمن التي سكنت الكوفة، ذكره الطبري ممن استُشهد مع الحسين عليه السلام[٤].

---

(١) الطبري، ج٥، ص٤٤٢.
(٢) بحار الأنوار ج٤٥، ص٧٣.
(٣) الطبري، ج٥، ص٤٠٨ ـ ٤٤٥.
(٤) الطبري، ج٥، ص٤٤٣.

٢٠ ـ زاهر مولى عمرو بن الحمق الخزاعي:

وهو من شخصيات الكوفة، شيخ كبير السن من موالي كندة[١].

٢١ ـ جابر بن الحارث السلماني:

من شخصيات الشيعة في الكوفة، اشترك في حركة مسلم بن عقيل وتوجه إلى الحسين عليه السلام بعد فشل حركة مسلم في الكوفة مع جماعة، والتقوا مع الحسين قبيل وصوله الى كربلاء، فأراد الحر بن يزيد الرياحي منعهم من اللحاق بالحسين ولم يفلح[٢].

٢٢ ـ جبلة بن علي الشيباني:

اشترك في حركة مسلم بن عقيل في الكوفة والتحق بالحسين عليه السلام وقاتل معه واستشهد[٣].

٢٣ ـ بُرير بن خضير الهمداني:

يوصَف بأنه سيد القرَّاء، كان شيخاً تابعياً ناسكاً قارئاً للقرآن، ومن شيوخ القرَّاء في جامع الكوفة، وله في الهمدانيين شرف وقدر، ويبدو أنه كان مشهوراً ومحترماً في مجتمع الكوفة[٤].

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٧٢، المناقب، ج٤، ص١١٣.
(٢) الطبري، ج٥، ص٤٤٦.
(٣) أنصار الحسين/ شمس الدين.
(٤) الطبري، ج٥، ص٤٣٢.

٢٤ ـ سعيد بن عبد الله الحنفي:

أحد الرسل الذين حملوا رسائل الكوفيين الى الحسين عليه السلام من أعظم الثوار حماساً[١].

٢٥ ـ نافع بن هلال الجملي:

من شخصيات الكوفة البارزة ومن قبائل مذحج، شارك في جلب الماء مع العباس عليه السلام، قاتل مع الحسين عليه السلام واستُشهد.

موقف الأمصار الاسلامية من ثورة الحسين عليه السلام:

لقد حاول الامام الحسين عليه السلام حين خرج من المدينة رافضاً البيعة ليزيد أن يصل صوته وأسباب رفضه للبيعة الى أرجاء العالم الاسلامي، وقد وظف وجوده في الحرم المكي في موسم الحج لهذا الغرض، كونه مركز تجمع للمسلمين من مختلف الأمصار حيث هي فرصة لملاقاة هؤلاء الحجيج وتبيان أبعاد موقفه بكل التفاصيل، وفي هذه الخطوة سيقوم الحجاج العائدون الى ديارهم بدور الرسول الاعلامي للثورة الذي سينقل أسباب رفض الحسين عليه السلام للبيعة وخروجه على يزيد. . . خروج الحسين من مكة وتوجهه الى الكوفة كان أثناء مراسم الحج، فقد خرج في اليوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية) وهذا يعني أن وفود الحج قد علمت بمغادرة الحسين وتوجهه

---

(١) الطبري، ج٥، ص٤١٩.

للكوفة ومكاتبة الكوفة له ودعوته الى إتيانها، وعليه سيعود الحجاج بهذه الأخبار الى أمصارهم وفي هذا من المجال لتهيئة الدعم والاسناد للثورة الحسينية إن وُجد، وهذا ينطوي على عِلم العالم الاسلامي بالمواجهة بين الحسين عليه السلام وجيشه وجيش يزيد، ويمكن لنا أن نضيف الى ذلك دعوة الحسين للنصرة أثناء خروجه من مكة وفي طريقه من مكة إلى الكوفة.

لنا هنا أن نتساءل: ما هو موقف العالم الاسلامي وبقية الأمصار أولاً من تقليد يزيد للخلافة الاسلامية؟ وثانياً: ما هو موقف العالم الاسلامي من ثورة الحسين عليه السلام بعد أن تهيَّأ الغطاء الاعلامي للثورة من خلال موسم الحج؟

لو استثنينا موقف الشام باعتباره المِصر المُضَلل الذي قام بدعم الباطل بعد أن ضُلل لدرجة الاعتقاد بأحقية معاوية بالمطالبة بدم عثمان ومن ثم بأحقيته بالخلافة له ولابنه يزيد من بعده، لمعرفة موقف الأمصار الاسلامية، يتحتم علينا إجراء قراءة سريعة لما تحويه صفحات التأريخ المتواجدة بين أيدينا التي ربما تكون غير كافية لتغطية جميع الأحداث بصورة مفصَّلة فضلاً عن وجود الظروف المواتية والمناخ الحر لنقل الواقع بصورة أمينة ومنصفة، وعلى ضوء ما هو متوفر نجد أن باقي الأمصار تنطوي على فئتين: فئة مُضللة بإعلام السلطة، وفئة قد وعت وتبصَّرت الأمور، ولكن لم يكن لها موقف

يُذكر، فمثلاً مِصْر باعتبارها إحدى كُبريات الأمصار الاسلامية كان واليها عمرو بن العاص الذي يعتبر الرجل الثاني في سلطة بني أمية بل ومستشار معاوية الأول إن جاز لنا التعبير، وأحد الرجالات المخلصين له، ومن الطبيعي والحال هذا أن يكون المصريون بالمستوى العام يدينون بالولاء لمعاوية وإن وُجِد اتجاه موالٍ لأهل البيت فانه ضعيف ولا يقوى على اتخاذ موقف مسؤول يصل إلى حد إسناد الثورة والثائرين أو الانقلاب على والي معاوية، والدليل على ذلك عدم وصول رسائل وكتب الى الامام الحسين ولم يُحدثنا التأريخ بوجود تمرد أو رفض لبيعة يزيد.

أما الحجاز التي تضمُّ كبار الصحابة وخصوصاً في مكة والمدينة فهي مهد الرسالة، وقد أكد معاوية في وصيته ليزيد أن يأخذ البيعة من أربع: الحسين عليه السلام، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وفي هذان المصران كان هناك وعي كافٍ للأمور باعتبار القُدمة والسابقة في الايمان ووجود الصحابة الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ووعوا الأحكام الاسلامية، وهذا يعني وجود قابلية وقدرة لتمييز الأمور، ولكن الموقف يختلف على صعيد الواقع حيث خرج الامام الحسين من الحجاز ومن مكة بالتحديد وقد عَلِمَ الجميع بأسباب خروجه وعلموا بكتب ورسائل أهل الكوفة وكانت هناك مواقف متباينة ولكن بصورة عامة فقد نصح الكثيرون الامام الحسين عليه السلام بعدم الخروج والوثوق بكتب أهل الكوفة مع علمهم

بعدم أهليَّة يزيد للخلافة، ولكن لم نجد ما يؤكد أو يشير إلى خروج أو تأييد أو اندفاع لأهل الحجاز للثورة، نعم قد خرج معه بعض الأفراد الذين لا يمكن لنا قياس موقفهم على المستوى العام بحيث ننسب لموقفهم موقف المِصر بأجمعه: ربما تبلور الموقف بعد قتل الحسين عليه السلام بالطريقة الوحشية التي قُتِل بها فجاء رفض المدينة وثورتها متأخراً سنة (٦٣هـ) بعد وفود أهلها الى يزيد وما رأوه من فسوقه وما نتج عن ذلك من خلعه ورفضهم لبيعته، وما تَبِع ذلك من توجيه مسلم بن عقبة المُري (الذي سُمّي مسرفاً) الذي أَباح المدينة ثلاثاً يقتل الناس وينهب المتاع والأموال[١].

أما مكة فقد سار لها مسلم بن عقبة بعد أن بايع أهلها عبد الله بن الزبير الذي دعا الناس إلى بيعته واجتمعوا له وذلك سنة (٦٤هـ) فحاصرها مسلم بن عقبة ورمى البيت بالمجانيق وحرَّقه بالنار وبقيت مكة محاصرة حتى بلغ الجيش نعي يزيد.

على العموم مما يظهر لم يتبلور موقف ثوري وواضح وآني من الحجاز، أما موقف البصرة فيذكر الكامل:

اجتمع ناس من الشيعة بالبصرة في منزل إمرأة من عبد القيس يقال لها مارية بنت سعد وكانت تتشيع وكان منزلها لهم مألفاً يتحدثون فيه، فعزم يزيد بن نبيط على الخروج الى الحسين وهو من عبد القيس

---

(١) الكامل، ج٤، ص١١٧.

وكان له بنون عشرة فقال: أيكم يخرج معي؟ فخرج معه إبنان له: عبد الله وعبيد الله فساروا فقدموا عليه بمكة ثم ساروا معه فقتلوا معه[1]، وقد قال لأصحابه: إني قد أزمعت على الخروج وأنا خارج فقالوا له: إنا نخاف عليك أصحاب ابن زياد[2].

وقد كان الحسين قد كتب إلى أهل البصرة نسخة واحدة إلى الأشراف فكتب الى مالك بن مِسمع البكري والأحنف بن قيس والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمر بن عبد الله بن معمر يدعوهم الى كتاب الله وسنَّة رسوله فكلهم كتموا كتابه إلاَّ المنذر بن الجارود فانه خاف أن يكون دسيساً من ابن زياد فأتاه بالرسول والكتاب فضُرب عنق الرسول[3].

وبصورة عامة هناك من إلتحق بالامام الحسين عليه السلام واستُشهد معه ولكنهم أفراد مثل: (الحجاج بن زيد السعدي، سالم مولى عامر بن مسلم العبدي، سيف بن مالك العبدي، عامر بن مسلم، عبد الله بن يزيد العبدي، عبيد الله بن يزيد العبدي، يزيد العبدي)[4].

وعلى العموم لا يعتبر موقف البصرة موقفاً قوياً أو يوازي حجم

---

(١) الكامل، ج٤، ص٢١.

(٢) الطبري، ج٥، ص٣٥٤.

(٣) الكامل، ج٤.

(٤) أنصار الحسين، الطبري، ج٥، ص٤.

المسؤولية، وبصورة إجمالية لم يتبلور موقف ثوري وواضح سوى من مدينة الكوفة، وهذا الموقف نابع من الوعي والولاء الناشىء من المناخ الثقافي لمدينة الكوفة الذي يجعلها أكثر إدراكاً ووعياً للأحداث وأكثر رغبة في التغيير من الحجازيين والبصريين لتأثرها بأفكار الامام علي عليه السلام وتعاليمه، فقد تميزت الكوفة بأنها أكثر الأمصار ثورية واندفاعاً بينما غلب على البصرة التحفظ والحذر.

أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليه السلام:

لم يتوقع أهل الكوفة أن يقدم ابن زياد على جريمة قتل الحسين عليه السلام وبهذه الوحشية ويُقطع رأسه ورأس أصحابه ويُحمل إلى ابن زياد في الكوفة ثم إلى يزيد في الشام، ويُرَضُ صدرهُ وظهره بالخيل وتُسبى نساؤه وتُسْلَبَنَ؛ لذا فقد أدهشهم الموقف وجاء أسلوب العقيلة ليهز أعماقهم ويوقظ جذوة الولاء في أنفسهم ويُذيب جدار الخوف وحب الدنيا الذي منعهم من اتخاذ الموقف السليم، فكان أول موقف للعقيلة عندما مرَّت على الحسين عليه السلام صريعاً فنادت: يا محمداه، صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء مرمّل بالدماء، مقطع الأعضاء، وبناتك سبايا وذريتك مقتَّلة تسفي عليها الصَّبا! فأبكت كل عدوٍ وصديق[1].

لنا هنا وقفة تأمل لكلمات الحوراء، فهي ربطت في ندائها بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حامل الرسالة وجزاء أمته له بهتك حرمة سبطه وأسرِ ذريته، فهي بهذا حددت الجريمة بعنوان انتهاك حرمة الرسالة والرسول، فكانت أول صيحة توقظ بها الضمائر.

---

(١) الكامل، ج٢، ص٥٧٤.

المواقف الأخرى كانت في خطبة الحوراء بأهل الكوفة وخطبة السجاد عليه السلام ، يقول خزيم بن بشر الأسدي: نظرت إلى زينب بنت علي عليه السلام يومئذٍ فلم أر خفرة أنطق منها كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا فارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس ثم قال: الحمد لله والصلاة على محمد وآله الطاهرين، أما بعد، يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون فلا رقأت الدمعة ولا قطعت الرنه إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم وهل فيكم إلاَّ الصلف النطف والصدر الشنف. . . ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتبكون وتنتحبون، أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة وملاذ حيرتكم ومفزع نازلتكم ومنار حجتكم ومدرة سنتكم، ألا ساء ما تزرون وبُعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي وتبت الأيدي وخسرت الصفقة وبُؤتم بغضبٍ من الله وضُربت عليكم الذلة والمسكنة، ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم وأي كريمة له أبرزتم وأي دمٍ له سفكتم وأي حرمةٍ له انتهكتم، لقد جئتم بها صلعاء عنقاء سوداء فقماء فأناء (وفي رواية خرقاء) شوهاء كطلاع الأرض أو ملء السماء، أفعجبتم أن أمطرت السماء دماً فلعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تنصرون فلا

يستخفنّكم المهل فانه لا يحفزه البدار ولا يخاف فوت الثأر وإن ربكم لبالمرصاد.

قال: فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم ورأيت شيخاً واقفاً الى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يبزى[1].

وكان من خطبة السجاد بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ بما هو أهله ثم قال:

«أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن من انتُهك حريمه وسُلب نعيمه وانتُهب ماله وسُبي عياله، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراث، أنا ابن من قُتل صبراً وكفى بذلك فخراً، أيها الناس ناشدتكم بالله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقتلتموه وخذلتموه فتباً لما قدمتم لأنفسكم وسوأة لرأيكم بأية عين تنظرون إلى رسول الله إذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي فلستم من أمتي».

---

(١) أعيان الشيعة، ج١، ص٦١٣.

فارتفعت أصوات الناس بالبكاء من كل ناحية وقال بعضهم لبعض: هلكتم وما تعلمون، فقال عليه السلام: «رحم الله امرأ قَبِل نصيحتي وحفظ وصيتي في الله ورسوله وأهل بيته فان لنا في رسول الله أسوة حسنة»، فقالوا بأجمعهم: نحن كلنا سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرك يرحمك الله فإنا حربٌ لحربك وسلم لسلمك لنأخذن يزيد ونبرأ ممن ظلمك وظلمنا. فقال عليه السلام: «هيهات هيهات أيّها الغدرة المكرة حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم أتريدون أن تأتوا إليَّ كما أتيتم الى آبائي من قبل. . . . »[1].

الملاحظ أن خطبة العقيلة والسجاد بما بها من توبيخ وتبكيت لأهل الكوفة تمثل هزَّات عنيفة لنفوس هؤلاء القوم الخائرة المتخاذلة تحت وطأة جور الولاة وكأنهم يقولون لهم إن تخاذلكم قد قادكم إلى جرائم جسيمة بحق أحب الناس إلى نفوسكم فاختزلت خطبهم عليهم السلام سلوكية أهل الكوفة بمقدماته بدعوة الحسين عليه السلام ونتائجه المتمثلة بالخذلان والغدر، فوضعتهم أمام حقيقة أنفسهم ورسمت لهم صورة واضحة وجليَّة لدواخلهم التي غدت مشوَّهة ولكن غطى قباحة منظرها ستار الخوف والتبريرات التي يقدمونها لخذلانهم لسبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كانت ردود أفعال أهل الكوفة ازاء

(١) أعيان الشيعة، ج١، ص٦١٤.

جريمة ابن زياد متعددة ومتباينة وقد صدرت عدَّة مواقف مندِّدة بالجريمة منها:

١ ـ موقف زيد بن أرقم الذي رأى ابن زياد ينكت بقضيب بين ثنيتي الحسين عليه السلام (حين جلس ابن زياد وأذن للناس وأُحضرت الرؤوس بين يديه) حيث قال له: أعْلِ هذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على هاتين الشفتين يقبّلهما! ثم بكى فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك! فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربتُ عنقك، فخرج وهو يقول: أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمَّرتم ابن مرجانة فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذُل فبعداً لمن يرضى بالذل[1].

٢ ـ موقف عبد الله بن عفيف الازدي، وكان ضريراً قد ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل مع علي عليه السلام والأخرى بصفين معه أيضاً، وكان لا يفارق المسجد يُصلي فيه إلى الليل ثم ينصرف، فلما سمع مقالة ابن زياد (جاء بعد أن نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر وقال): الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذَّاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته. فقال عبد الله بن عفيف الازدي: يابن مرجانة! إن الكذاب ابن الكذاب أنت

---

(١) الكامل، ج٢، ص٥٧٤.

وأبوك والذي ولاَّك وأبوه! يابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين؟ فقال: عليّ به فأخذوه فنادى بشعار الازد: يا مبرور، فوثب اليه فتية من الازد فانتزعوه، فأرسل إليه من أتاهُ به فقتله وأمر بصلبه في المسجد فصُلب رحمه الله[1].

ثم أمر ابن زياد برأس الحسين عليه السلام فطيف به في الكوفة ثم أرسل رأسه عليه السلام ورؤوس أصحابه مع السبايا والأطفال الى يزيد.

من جهة ثانية كان مصرع الحسين عليه السلام بداية لكثير من الثورات في الكوفة ابتداءً من ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صُرَد الخزاعي حيث تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ورأت أنها أخطأت خطأً كبيراً بدعائهم الحسين عليه السلام وتركهم نصرته وإجابته ورأوا أنه لا يغسل عارهم والاثم عليهم إلاَّ قتلُ من قتَلَهُ أو القتل فيهم، فاجتمعوا إلى خمسة نفر من رؤساء الشيعة وهم:

١ ـ سليمان بن صُرَد الخزاعي وكانت له صحبة.

٢ ـ المسيب بن نجبة الفرازي، من أصحاب علي عليه السلام.

٣ ـ عبد الله بن سعد بن نُفيل الازدي.

٤ ـ عبد الله بن والٍ التيمي (تيم بكر بن وائل).

٥ ـ رفاعة بن شداد البجلي[2].

---

(١) الكامل، ج٢، ص٥٧٥.

(٢) الكامل، ج٢، ص٦٢٥.

وكانوا من خيار أصحاب علي عليه السلام وكان اجتماعهم في سنة (٦٤هـ) في منزل سليمان واتفقوا على التوبة والأخذ بثأر الحسين، وبدأوا بتجميع الجموع وشراء السلاح ولم يخرجوا إلاَّ سنة (٦٥هـ) حيث تواعدوا في النخيلة فاجتمع إليهم اربعة آلاف من أصل ستة عشر ألف، ثم انهم توجهوا إلى ضريح الحسين وترحَّموا عليه وتابوا ثم اتجهوا الى الانبار حتى وصلوا عين الوردة وأقبل أهل الشام وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد فوقعت هناك مقتلة عظيمة قُتل فيها سليمان بن صُرَّد وأصحابه ولم ينجُ غير رفاعة بن شداد ونفر يسير عادوا إلى الكوفة.

ثورة المختار:

كانت ثورة المختار بقيادة المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان محبوساً في سجن ابن زياد حين قُتل الحسين عليه السلام وقد عزم بعد أن وسَّط عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي كان أخو زوجه فكتب إلى يزيد بذلك فأمر عبيد الله بن زياد فأخرجه من محبسه. وقد وثب المختار بالكوفة سنة (٦٦هـ) وأخرج عنها عامل الزبير عبد الله بن مطيع ثم تابع كل قَتَلة الحسين عليه السلام فقتلهم منهم عمر بن سعدوابنه حفص، فقال المختار: هذا بحسين وهذا بعلي بن الحسين ولا سواء، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله، وأرسل المختار إلى محمد بن الأشعث في قرية له إلى جانب القادسية

فطلبوه فلم يجدوه، وكان قد هرب الى مُصعب فهدم المختار داره وبنى بلبنها وطينها دار حجر بن عدي الكندي التي كان زياد قد هدمها، كما قتل خولى بن يزيد الأصبحي صاحب رأس الحسين عليه السلام ، كما قتل عمرو بن الحجاج الزبيدي وشمر بن ذي الجوشن، كما التقى عبيد الله بن زياد في عساكر الشام يؤم العراق بابراهيم بن الأشتر النخعي من قبل المختار بالخازر فكانت وقعة عظيمة قُتل فيها عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير(١).

بصورة عامة كانت ثورة الامام الحسين عليه السلام بداية لكثير من الثورات ويمكن لنا القول أنها بداية السقوط لدولة بني أمية وليس الغرض من الكتاب سرد الثورات التي حدثت بعد ثورة الحسين عليه السلام ولكن الغرض من هذا البحث توضيح موقف الكوفة.

(١) مروج الذهب، ج٣، ص١١١.

خاتمة البحث:

بعد هذا الاستعراض الموجز لتأريخ الكوفة الذي سلَّطنا فيه الضوء على زوايا ربما كانت معتمة في تأريخ هذه المدينة التي كان أبرز مَعْلَمٍ لها انتشار الأجساد المصلوبة على الأعواد والرؤوس المرفوعة على الرماح يُطاف بها من بلدٍ إلى بلدٍ والسجون والنفي والتشريد والمحاربة في الأرزاق بالتقليل والحرمان من العطاء بل وقد استحدثت طرق جديدة للتعذيب والموت فكم قُطعت أيدٍ وأرجل وكم سُمِلت أعين وتم التفنن في طُرق الموت، فيأمر الخليفة واليه أن يقتل أحد الكوفيين شرَّ قتلة فيدفنه حياً كلُّ ذلك إمعاناً في التنكيل بهذه المدينة المنكوبة وذلك لولائها للامام علي عليه السلام وتمسكها بمبادئه، كيف لا وقد عاشت العدل معه ورأت الاسلام الحقيقي في سلوكه، فكانت بؤرة للتحرك الثوري تهب مع كل ثائر، وقد نجح معاوية بدهائه في كسر هذه الروح الثورية فجعلها تعيش حالة الخوف والتردد والاهتزاز فتميل مع الثائرين ولكن ما أن يلوّح لها الولاة بالسيف ويُوقظون في ذاكرتها أشباح الرؤوس والأجساد حتى تتراجع مذعورة خائفة... فقد نشأ جيل كان يرى أجساد الثائرين تُجَر في الأسواق

وتُرمى من القصور وتجزر كالأضاحي لا لشيءٍ إلاَّ لإيمانها بالاسلام الأصيل.

هناك عوامل أخرى ساعدت على زعزعة المجتمع الكوفي، منها التركيبة السكانية، فمن المعلوم أن هذا المجتمع عبارة عن خليط غير متجانس من القبائل التي استقرَّت في الكوفة بعد الفتح مضافاً إلى الموالي، هذا الخليط المتباين في الولاءات والأهواء يجعل توحيده وتطويعه تحت قيادة واحدة من الصعوبة بمكان، هذا إذا علمنا أن فرصة توحيد الأغلبية مع قيادات موحَّدة قوية قد ضيّعها معاوية وولاته بملاحقة الموالين الخُلَّص المهيّئين للعب دور مهم في تسيير المجتمع، وقد تمت تصفيتهم تباعاً أو نفيهم أو سجنهم فبقي المجتمع مشلولاً مسلوب الإرادة.

المسؤولية عن كثير من المواقف التي وصمت المجتمع الكوفي بالغدر والخيانة كالقبول بالتحكيم في صفين وخيانة الحسن عليه السلام في ساباط وخذلان مسلم والغدر بالحسين عليه السلام يتحملها بالمقام الأول عدد من الأشراف الذين يتصفون بالنفاق والانتهازية والسعي وراء حماية المصالح والامتيازات التي كانت مترابطة مع مصالح النظام الأموي ويمكن لنا تلمس ذلك من خلال البحث ولا نريد هنا أن نُبرر تنصّل المجتمع بالمستوى العام من المسؤولية ولكن هذا الشعب محكوم لأشرافه الذين لعبوا دوراً كبيراً

في رسم مواقف هذه المدينة وتأريخها ويستحضرنا موقف عبد الله بن أبي سلول ومؤامراته ضد الاسلام ورسوله ﷺ بل وإنسلاله في أُحُد بثلث الجيش.

ولو أردنا أن نجري مقارنة بين الكوفة وأية مصرٍ من الأمصار نجد أن ما ابتُليت به هذه المدينة من الارهاصات والتنكيل لم يجر نظيره في أي مصر آخر بل وحتى أن خُلَّص الشيعة هم ممن سكنوا الكوفة وكان مصيرهم فيها الصلب والقتل والتعذيب، ولنا أن نقول إن الكوفة ضمت رؤوساً للغدر والخيانة كالأشعث وقيس بن الأشعث وشبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج ومحمد بن الأشعث وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وغيرهم...

ولكنها تطاولت بالمخلصين كمالك الأشتر وحجر بن عدي وصعصعة بن صوحان ورُشيد الهجري وميثم التمار وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة والحر الرياحي وغيرهم.

ولذا نجد من دواعي الانصاف أن ننظر الى الغدر من جانب وإلى الولاء من جانب آخر دون تعسّف.

الكوفة في أحاديث الأئمة عليهم السلام:

١ ـ روى المجلسي والحر العاملي عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله أو عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلتُ له أي بقاع الأرض أفضل بعد حرم الله وحرم رسوله؟

فقال: الكوفة يا أبا بكر، هي الزكية الطاهرة، فيها قبور النبيين والمرسلين وغير المرسلين والأوصياء الصادقين، وفيها مسجد سهيل الذي لم يبعث الله نبياً إلاَّ وقد صلَّى فيه، ومنها يظهر عدل الله، وفيها يكون قائمه والقوام من بعده، وهي منازل النبيين والأوصياء والصالحين.

٢ ـ روي في البحار والوسائل بالاسناد قال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: أول بقعة عُبِد الله عليها ظهر الكوفة لما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا على ظهر الكوفة، وإن الملائكة لتنزل في كل ليلة إلى مسجد الكوفة.

٣ ـ في السماء والعالم والبصائر عن أحمد بن محمد عن ابن فضال عن أبي جميلة عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عرض ولايتنا على أهل الأمصار فلم يقبلها إلاَّ أهل الكوفة.

٤ ـ وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: هذه مدينتنا ومحلنا ومقر شيعتنا.

٥ ـ عن الصادق عليه السلام في الكوفة: تربة تحبنا ونحبها.

وعنه عليه السلام: اللهم ارمِ من رماها وعادِ من عاداها.

٦ ـ في شرح النهج (٣/ ٢٨٦ طبعة مصر):

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنه يُحشرُ من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفاً وجوههم على صورة القمر.

٧ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: كأني بكِ يا كوفة تمدين مد الاديم العكاظي تعركين بالنوازل وتركبين الزلازل، وإني لأعلم أنه ما أراد بك جبارٌ سوءاً إلى ابتلاه الله بشاغل أو رماهُ بقاتل[1].

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج، ج٣، ص١٩٧، تحقيق أبو الفضل ابراهيم.

المصادر

١ ـ أنساب الأشراف/ البلاذري، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت.

٢ ـ الإرشاد/ المفيد، الطبعة الأولى، مكتبة بصيرتي، قم.

٣ ـ الاصابة/ ابن حجر العسقلاني، ج١، ٤، ٣، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي.

٤ ـ الاستيعاب/ ابن عبد البر القرطبي، ج٢، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.

٥ ـ أعيان الشيعة/ السيد محسن الأمين، ح٩٢١، الطبعة الأولى، دار التعارف للمطبوعات.

٦ ـ الامامة والسياسة/ ابن قتيبة، الطبعة الأولى، انتشارات الشريف الرضي.

٧ ـ أصحاب الحسين/ علي محمد علي دخيل.

٨ ـ أنصار الحسين/ محمد مهدي شمس الدين، الطبعة الثالثة، مؤسسة البعثة، قم.

٩ ـ البيان والتبيين/ الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب.

١٠ ـ بحار الأنوار/ المجلسي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١ ـ البداية والنهاية/ ابن كثير، الطبعة الأولى، دار التراث العربي، بيروت.
١٢ ـ تهذيب التهذيب/ ابن حجر العسقلاني، ج٨، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٣ ـ تأريخ الكوفة/ البراقي، الطبعة الرابعة، دار الأضواء، بيروت.
١٤ ـ ثورة الحسين: أسبابها، نتائجها، ظروفها، محمد مهدي شمس الطين، الطبعة السادسة، دار التعارف، بيروت.
١٥ ـ حياة الحسن/ باقر القرشي، دار البلاغة.
١٦ ـ العقد الفريد/ ابن عبد ربه الاندلسي، الطبعة الأولى، دار احياء التراث العربي.
١٧ ـ الغارات/ أبي اسحاق المعروف بابن هلال الثقفي، الطبعة الأولى، دار الأضواء، بيروت.
١٨ ـ الغدير/ عبد الحسين الأميني، الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلمي.
١٩ ـ الكامل/ ابن الاثير، ج٢، ٣، ٤، دار بيروت للطباعة والنشر.
٢٠ ـ الكامل/ ابن الاثير، ج٢، الطبعة الرابعة، مؤسسة التأريخ العربي.
٢١ ـ شرح نهج البلاغة، الطبعة الثانية، تحقيق محمد ابو الفضل

ابراهيم، دار احياء التراث العربي، بيروت.
٢٢ ـ صلح الحسن/ شيخ راضي آل ياسين.
٢٣ ـ الطبري/ ابن جرير الطبري، طبعة دار التراث، تحقيق مكتب التراث.
٢٤ ـ تأريخ الخلفاء والملوك، تحقيق ابو الفضل ابراهيم.
٢٥ ـ طبقات ابن سعد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٦ ـ مقاتل الطالبيين/ أبي الفرج الأصفهاني، الطبعة الثانية، مؤسسة دار الكتاب، قم.
٢٧ ـ معالم الانحراف في العصر الأموي/ محمد نعمة السماوي، دار المرتضى.
٢٨ ـ مروج الذهب/ المسعودي، تحقيق محم محي الدين، المكتبة التجارية، مصر.
٢٩ ـ مقتل الحسين/ المقرم، الطبعة الثانية، دار الثقافة للطباعة والنشر، قم.
٣٠ ـ مجمع الزوائد/ الهيثمي، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣١ ـ وارث الأنبياء/ محمد مهدي الآصفي، الطبعة الأولى، دار الكرام، بيروت.
٣٢ ـ وقعة صفين/ نصر بن مزاحم، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية الجديدة، القاهرة.

٣٣ ـ نهج البلاغة/ محمد عبده، الطبعة الأولى، الدار الاسلامية.
٣٤ ـ تاريخ اليعقوبي/ احمد بن ابي يعقوب، الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلمي.
٣٥ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري/ ابن حجر العسقلاني.
٣٦ ـ النصائح الكافية.

الفهـــرس

*** رجالات الكوفة ***